النزغة الشيطانية في شعر الصعاليك

« دراسة تحليلية فنية »

الدكتور

ماهر أحمد سيد على سقال

المدرس بقسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بأسيوط

العدد العشرون

للعام ١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م

الجزء الثالث

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٦م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أحقَّ الحقَّ بقدرته ، وأبطل الباطلَ بعدله وحكمته إن الباطل كان زهوقا ، وأصلِّي وأسلِّم على سيدنا محمد النبي الأميِّ الذي هدى الله – تعالى – به البلاد والعباد إلى ما فيه الحق والسداد ، وسلم عليه وعلى آله وصحبه إلى يوم التناد .

و بعد :

فلا شك أن شعر الصعاليك قد تبوأ مكانة عالية في تاريخ الأدب العربي منذ العصر الجاهلي ، وما بعده من عصور ؛ لما فيه من خصائص فنية عالية شغلت كثيرًا من النقاد والباحثين .

وقد تحدث الدكتور / يوسف خليف عن هؤلاء الشعراء ، وذلك في كتابه : «الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي»[١] ، وكذا الدكتور / عبد الحليم حفني في كتابه : «شعر الصعاليك منهجه وخصائصه الفنية»[٢] وكان حديثهما عامًا تلمح فيه الإشادة بحياة هؤلاء الصعاليك وشعرهم .

وقد كثر الحديث عن الشعراء الصعاليك خاصة في تاريخ الأدب الجاهلي ، وكنت أحاضر هذه المادة ، فأثار انتباهي اهتمام كثير من الأدباء والنقاد بالثناء على أخلاق هؤلاء الشعراء الصعاليك ، والإفراط في وصفهم بالكرم ، والشجاعة ، والمروءة ، والنزعة الإنسانية ، فقلت : لمَ هذه النظرة المقدسة لأخلاق هؤلاء الصعاليك ؟ فكيف لو كانوا ملائكة بين البشر ؟

---

(١) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي للدكتور/ يوسف خليف ط / دار غريب – القاهرة.
(٢) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه للدكتور/ عبد الحليم حفني – بدون طبعة .

وقد وقر في ذهني أن الأصل في الصعلوك هو الشر والفساد ، وهذا ما أقرته لي المعاجم العربية[١] فلم تهافت الباحثون ومؤرخوا الأدب العربي حول الجوانب المضيئة في شعر الصعاليك ، وتركوا جوانبه المظلمة مع أنها هي الأصل؟

ومنذ ذلك الحين وقد تتبعت شعر هؤلاء الصعاليك بالبحث والتنقيب؛ للكشف عن جوانبه المظلمة بالشرِ والفساد على الرغم من صعوبة ذلك عليَّ ؛ لما امتاز به هؤلاء الشعراء من مكر ودهاء في إخفاء فسادهم وجرائمهم ، فكثيرًا ما يتحدثون عن الفقر ومذلته ونفور الناس منه؛ حتى يلتمس لهم العذر في سطوهم على أموال الأغنياء وأكلها بالباطل .

كما أنهم كثيرًا ما يتحدثون عن كرمهم وتكافلهم الاجتماعي ، وشجاعتهم وسرعة سطوهم ، ومروءتهم ؛ لإخفاء ما اشتهروا به بين القبائل من الشر والفساد ؛ حتى خلعوا من قبائلهم على رؤوس الأشهاد في محافل العرب وأسواقهم .

وهم يتكرمون على بعضهم ، ويكفلون ضعفاءهم ؛ إحياءً للصعلكة ؛ حتى تنتشر بين أفراد المجتمع ، وأي قيمة للكرم إذا كان الكريم لا يحترم ملكية الآخرين فيسطو عليها ويجود منها على غيره؟

وأي قيمة للشجاعة والمروءة في الغدر بالأبرياء وسفك دمائهم وأعراضهم في ظلام الليل البهيم ؟

---

(١) ينظر : الصحاح للجوهري ١٥٩/٤ ، لسان العرب لابن منظور ٣٧٨/١ ط / الثالثة ط ١٤١٤هـ – دار صادر – بيروت ، المعجم الوسيط ٥١٥/١ ط / دار الدعوة .

وكفانا في ذلك قصة أبي الطمحان القيني الشهيرة في المصادر الأدبية بليلة الدير ، والتي نزل فيها بصاحبة الدير فأكل معها لحم الخنزير ، وشرب من خمرها وسلب عرضها ومالها[١] .

بالله عليك قل لي : صعلوك يأكل لحم الخنزير ، ويشرب الخمر ، ويسلب العرض والمال ، فأي شيء بقي من مروءته وإنسانيته ؟

لاشك أنه لم يبق شيء ، فكما حكى المبرد على لسان الصعاليك ، فقال : «نحن الصعاليك لا طاقة لنا على المروءة »[٢] .

والأصل في الإنسان أن ينزع بفطرته إلى الخير، لكن شيطانه قد ينزغ له بالشر والفساد ، قال – تعالى – : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ [٣] فإذا ترك الإنسان نفسه للشيطان فلم يستعذ بالله منه؛ اختلط فكره بفكر شيطانه فصار شيطاناً يمشي على الأرض ، وهذا ما حدث مع هؤلاء الصعاليك، حيث بدت مظاهر النزغة الشيطانية واضحة في شعرهم ؛ ممثلة في: التمرد على القدر، والتجاهر بالفسق وسفك الدماء، وسلب أموال الناس وأعراضهم بالباطل؛ بالإضافة إلى ما جاء من شعرهم في الخمر ، والهجاء والسخرية من الفقراء الأشراف وما جاء في العصبية الطائفية ، والفخر الكاذب.

وعلى الرغم من قبح هذه المعاني والأغراض الشيطانية ؛ إلا أن لها قيمتها الفنية العالية في شعر الصعاليك ؛ مما جعلني أتذكر قول الأصمعي : «إن الشعر نكد يقوى في الشر »[٤] .

---

(١) ينظر : المحاسن والأضداد للجاحظ ص ١٦٩ ط / ١٤٢٣هـ – دار الهلال – بيروت ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٧٦/١ ط / ١٤١٨هـ – دار الكتب العلمية – بيروت .

(٢) الكامل في اللغة والأدب للمبرد تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ٣٠٨/١ ط / الثالثة ١٤١٧هـ – دار الفكر .

(٣) آية (٣٦) من سورة : فصلت .

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٩٦/١ .

ولكني – بلا تعصب – أقول : إن قوة الشعر ترجع إلى قوة عاطفة الشاعر في الخير أو الشر ، فكما قال – تعالى – :﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (١).

وهنا استوقفتني قضية «شياطين الشعر» التي ذكرها النقاد ، والتي تفيد بأن للشاعر شيطانًا يلقنه الشعر ، ويعينه عليه(٢) .

وقد بدا لي ذلك واضحًا في شعر الصعاليك الذي يعد ترجمة عملية لقضية «شياطين الشعر»؛ مما زادني صعوبة في التنصت على النص الشعري؛ لاستخراج ما فيه من نزغات شيطانية على الرغم من حرص هؤلاء الشعراء على إخفاء ما يشينهم ومهارتهم في تقبيح الحسن، وتحسين القبيح؛ بالإضافة إلى ما واجهته من صعوبات في جمع أشعارهم الشيطانية من بين ثنايا مصادر الأدب القديمة، وتحليلها تحليلاً يتناسب مع الدراسات الفنية الحديثة.

وقد سرت في هذا التحليل على المنهج التكاملي الذي يعتمد في تحليله على الأخذ من المناهج الأخرى بمقدار ما يحقق هدف موضوع البحث ويحقق المفهوم السامي للأدب في برجه الرفيع .

وقد التزمت في هذا المنهج بتخريج الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية والأبيات الشعرية من مصادرها المعتمدة ، وذكرت معاني المفردات الغامضة في هامش البحث مع ذكر ترجمة موجزة للأعلام غير المشهورة؛ كما التزمت بعلامات الترقيم في جميع صفحات البحث .

---

(١) آية (٢٠) من سورة : الإسراء .

(٢) ينظر : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني ص ٤٦ ، ثمار القلوب لأبي منصور الثعالبي ص ٧٠ ط / دار المعارف ، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهاني ٦٦٤/٢ ط / ١٤٢٠هـ – بيروت .

أما خطة البحث ، فتشتمل على مقدمة في أوله، وتمهيد يبحث في : مفهوم الصعلكة وعلاقاتها بالنزغة الشيطانية .

وتشتمل الخطة في مضمونها الرئيس على أربعة فصول بعضها ذا مباحث متعددة كالآتي :

الفصل الأول : الشعراء الصعاليك بين الجاهلية والإسلام .

الفصل الثاني : أخلاق الشعراء الصعاليك ورأي النقاد فيهم .

الفصل الثالث : أهم مظاهر النزغة الشيطانية في شعر الصعاليك .

الفصل الرابع : النزغة الشيطانية وأثرها في القيمة الفنية لشعر الصعاليك ، ويشتمل على المباحث الآتية :

المبحث الأول : الأسلوب والمعنى .

المبحث الثاني : العاطفة والصورة الشعرية .

المبحث الثالث : الإيقاع الموسيقي .

الخاتمة ، وبعدها فهرس المصادر والمراجع ، وفهرس الموضوعات .

وأخيراً أرجو أن أكون قد وفقت في الكشف عن هذا الجانب الشيطاني المستتر في شعر الصعاليك والمنسي عند الباحثين؛ وذلك من باب إحقاق الحق وإبطال الباطل؛ حتى لا يقتدي بعبثهم وفسادهم أحد من شباب الأمة الإسلامية ، غفر الله – تعالى – لنا ولمن تاب منهم إنه هو الغفور الرحيم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تمهيد

مفهوم الصعلكة وعلاقتها بالنزعة الشيطانية

الصعلكة في اللغة مشتقة من مادة «صعلك» ، وتطلق عل معانٍ عدة أهمها : الفقر.

يقول الأزهري : «الصعلوك ، والجمع الصعاليك وهم قوم لا مال لهم ولا اعتماد»(١) .

والصعلوك : الفقير ، وصَعْلَكَهُ : أفقره(٢) .

وأكد هذا المعنى صاحب اللسان ، فقال : « الصعلوك : الفقير الذي لا مال له »(٣) ، واستدل بقول حاتم (٤) :

عنينا زمانًا بالتصعلك والغنى ∴ كما الدهر في أيامه العسر واليسر

كسينا صروف الدهر لينًا وغلظة ∴ وكلا سقاناه بكأسيهما الدهر

ومن أهم معاني الصعلكة أيضًا : التلصص ، والفتك ، وقطع الطريق .

وقد فرَّق الدكتور / عبد الحليم حفني بين المعنيين ، فجعل الفقر هو الأصل اللغوي لمعنى الصعلكة، وجعل الفتك، والتلصص معنى عرفيًا أو اصطلاحيًا لها ، فقال : «يمكن اعتبار لفظ الصعلكة من الكلمات التي نقلت من الأصل اللغوي إلى مدلول عرفي أو اصطلاحي، وغلبه في الاستعمال، كما نقل لفظ الحج من

---

(١) تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري تحقيق : محمد عوض مرعب ج٣ ص ١٩٣ ط / الأولى سنة ٢٠٠١م – دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(٢) ينظر : الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) لأبي نصر الجوهري الفارابي تحقيق / أحمد عطار ج٤ ص ١٥٩٥ ، وتاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدي ج٢٧ ص٢٤٠ ط / دار الهداية .

(٣) لسان العرب لابن منظور ج١٠ ص ٤٥٥ ط / الثالثة سنة ١٤١٤ه – دار صادر .

(٤) ديوان حاتم الطائي شرح وتقديم / أحمد رشاد ط/ الأولى ١٤٠٦هـ ط/ دار الكتب العلمية بيروت .

الأصل اللغوي وهو: القصد إلى حج بيت الله الحرام، وغلب استعماله فيه ، وكما نقل لفظ الزكاة من الأصل اللغوي وهو الطهارة إلى الصدقة المفروضة في الإسلام على الأموال، فمثل هذا النوع من الألفاظ ينتقل به العرف أو الاصطلاح إلى مدلول جديد غير مدلوله اللغوي مع وجود رابطة بين المدلولين .

ومما هو معروف أن المدلول الجديد للفظ لا يمنع استعماله في معناه الأصلي، فاستعمال الحج مثلاً في القصد إلى الكعبة بالوصف المحدد لذلك، لا يمنع من استعمال لفظ الحج في معناه الأصلي وهو القصد إلى أي شيء ،

وهذا يفسر استعمال الصعلكة في المدلولين ، الأصلي ، والعرفي ، فقد نقلها العرف من المعنى الأصلي وهو : الفقر إلى مدلول آخر : هو العدوان غير المشروع في صورة اللصوصية أو قطع الطريق [١] .

ومع تقديري للدكتور / عبد الحليم حفني في إفاضته حول مفهوم الصعلكة؛ إلا أنه يبدو لي أن الصعلكة في أصلها اللغوي كما أطلقت على الفقر أطلقت أيضًا على التلصُّص وقطع الطريق في كثير من المعاجم العربية .

ومن المعروف أن المعنى الأصلي المجرد للكلمة يكون في المعجم العربي، أما المعنى العرفي أو الاصطلاحي فيكون عند أهل الفن، فإذا جاء في المعجم ظهر أنه مأخوذ من معنى آخر أصلي في الدلالة عليه.

فمثلاً : الحج لغة : القصد ، والمعنى العرفي أو الاصطلاحي له : قصد التوجه إلى بيت الله الحرام بالأعمال المشروعة ، وهذا المعنى هو المشهور في كتب أهل الفقه .

وقد ذكر صاحب اللسان المعنيين موضحًا أن المعنى الأول أصل في المعنى الثاني، وأن المعنى الثاني هو المعنى العرفي أو الاصطلاحي.

---

(١) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه . تأليف : د/ عبد الحليم حفني ص ٢٩ ، ٣٠ بدون طبعة .

يقول ابن منظور : «الحج : القصد ... ثم تعورف استعماله في القصد إلى مكة للنسك، والحج إلى البيت خاصة ، تقول : حجَّ يحجُّ حجًّا، والحج : قصد التوجه إلى البيت بالأعمال المشروعة فرضًا وسُنة، تقول : حججت البيت أحجُّه حجًّا: إذا قصدتهُ ، وأصله من ذلك»(١) .

أما الصعلكة بمعنى : الفتك، والتلصص، والتذؤُّب فقد جاءت بهذا المعنى في المعاجم العربية أيضًا دون الإشارة إلى أن غيره أصل فيه؛ مما يدل على أن هذا المعنى أيضًا يعدُّ أصلاً لغويًا للكلمة .

يقول صاحب الصحاح : «الصعلوك: الفقير، وصعاليك العرب : ذؤبانها»(٢) .

ويقول ابن منظور: «وذؤبان العرب: لصوصهم، وصعاليكهم الذين يتلصصون، ويتصعلكون»(٣) .

وقد أشار إلى المعنيين صاحب المعجم الوسيط، فقال : «الصعلوك: الفقير (ج) صعاليك، وصعاليك العرب : فتاكها »(٤) .

ولابد من علاقة وطيدة بين المعنى الأصلي للكلمة، والمعنى العرفي أو الاصطلاحي لها، فأين العلاقة الوطيدة التي بين الفقر، والفتك، والتلصص وأكل أموال الناس بالباطل؟ بل إن العلاقة قد تكون عكسية، فهناك الفقير الشريف الذي يرضى بالموت، ولا يرضى بأكل أموال الناس بالباطل ، وهناك الغني المتمرد الذي يميل إلى الثراء الفاحش، فيحترف الصعلكة، والتلصص، وأكل أموال الناس بالباطل؛ ليصل إلى أمانيه الحقيرة .

---

(١) لسان العرب ج٢ ص ٢٢٦ .
(٢) الصحاح لأبي نصر الجوهري ج٤ ص ١٥٩٥.
(٣) اللسان ج١ ص ٣٧٨ .
(٤) المعجم الوسيط . تأليف / مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات، حامد عبد القادر ، محمد النجار) ج١ ص ٥١٢٥ . ط / دار الدعوة .

ومن هنا يتضح أن الفتك والتلصص كالفقر من المعاني الأصلية لمفهوم الصعلكة .

ولو أردت أن أضع مصطلحًا عرفيًا لمفهوم الصعلوك؛ لأخذته من جملة المعاني الأصلية للكلمة، والتي سبق ذكرها .

فالصعلوك – في رأيي – : هو الفقير المتمرد الذي دعاه فقره إلى الفتك، والتلصص، وقطع الطريق، وأكل أموال الناس بالباطل.

وليس كل فقير ينطبق عليه حكم التمرد، والفتك، والتلصص.

وهذه المفاهيم الحقيرة تعد من نوازغ الشياطين، وليست من نوازع الفطرة الإنسانية التي جُبلت عليها النفوس البشرية .

وهناك فرق بين النزع، والنزغ، فالنزع معناه : الميل والاشتياق، ومنه : نزع الإنسان إلى أهله: أي مال واشتاق .

أما النَّزْغُ ، فمعناه : الإغراء ، والإفساد ، ونَزَغَ الشيطان بينهم نزغًا أي: أفسد وأغرى [١] .

قال – تعالى – : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ ﴾[٢] .

ويمكنني أن أقول بأن النزع يكون بالميل الفطري إلى الخير ، ومنه النزعة الإنسانية ؛ لأن الفطرة الإنسانية بطبيعتها مجبولة على الخير .

أما النزغ فيكون بإغراء الشيطان، ووسوسته؛ ليخرج النفس من فطرة الخير والصلاح إلى أبواب الشر والفساد ، ومنه النزغة الشيطانية .

ومن هنا تتضح العلاقة بين النزغة الشيطانية ، وبين مفهوم الصعلكة بمعنى : الفتك ، والتلصص، وأكل أموال الناس بالباطل، ولا شك أن هذه المعاني القبيحة من همزات ونوازغ الشياطين ، ومن ثم فالنزغة الشيطانية هي الأصل

---

(١) ينظر : اللسان ج٨ ص ٣٥٠ ، ٤٥٤ .

(٢) آية رقم (٣٦) من سورة : فصلت .

في شعر الصعاليك ؛ لأنها تتفق تمامًا مع المفهوم الحقيقي للصعلكة الذي جاء في المعاجم العربية كما تقدم .

وترى بعض الأدباء المنصفين يضع الصعاليك في موضعهم الحقيقي، فيصفهم بالوصف القبيح الصريح، فمثلاً : ترى الأصمعي يذكر الشاعر الصعلوك أبا النشناش النهشلي ، ويصفه بالتلصص الصريح ، فيقول[١] :

« وقال أبو النشناش النهشلي اللِّص :

وَسائِلَةٍ أَينَ الرَحيلُ وَسائِلٍ ∴ وَمَن يَسأَلُ الصُعلوكَ أَينَ مَذاهِبُه؟»

وترى ابن قتيبة يصف الشاعر الصعلوك سعد بن ناشب الشيطنة وصفًا صريحًا .

يقول ابن قتيبة : «سعد بن ناشب، وكان أبوه ناشب أعور، وكان من شياطين العرب، ... وكان سعد أيضًا من مردة العرب، وفيه يقول الشاعر [٢] :

وكيف يفيق الدهر سعد بن ناشب ∴ وشيطانه عند الأهلة يصرع؟»

وكونه من مردة العرب : أي من شياطينهم .

ولا شك أن هذه الأوصاف القبيحة الصريحة تؤكد مشروعية البحث عن أهم مظاهر النزغة الشيطانية في شعر الصعاليك . والله أعلم .

---

(١) الأصمعيات الأصمعي تحقيق : أحمد محمد شاكر ، عبد السلام محمد هارون ص ١١٨ ط / السابعة سنة ١٩٩٣م – دار المعارف، والبيت أيضًا في ديوان عروة بن الورد ص١٩ ط / ١٣٨٤هـ – دار صادر – بيروت ، والبيت من بحر الطويل .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج٢ ص ٦٨٥ ط سنة ١٤٢٣هـ ط / دار الحديث – القاهرة، والبيت من بحر الطويل .

الفصل الأول

الشعراء الصعاليك بين الجاهلية والإسلام

ارتبطت ظاهرة الصعلكة ارتباطًا وثيقًا بالعصر الجاهلي، حتى بدت وكأنها من أهمِّ سمات ذلك العصر ؛ حيث اتخذت من البادية العربية مسرحًا لها ، وكان ارتباطها بهذا المسرح الجغرافي ارتباطًا وثيقًا ، فتأثرت به في نشأتها ، وتكيفت معه في اتجاهاتها .

وقد دارت قصة صعاليك العرب في صحراء نجد وما جاورها من الصحارى والقفار، وهي صحراء رملية في الجنوب، والغرب ، والشرق ، وحجرية في الشمال، وتطوقها سلسلة من الجبال أكثرها منخفض قاحل، ومن أظهر ما عرفت به بلاد العرب منذ القدم ، الجدب ، والحر؛ لقلة المطر مع ارتفاع حرارة الشمس الحارقة(١) .

وهناك مناطق محدودة اشتهرت بالخصب ، والجودة مثل : اليمن ، وبعض نواحي نجد، ويثرب أو المدينة ، واليمامة، والطائف وغيرها .

والخصب البارز في هذه المناطق كان يجاوره فقر مدقع في المناطق نفسها بتفاوت أفرادها في الثراء، وطغيان بعضهم على أنصبة الآخرين فيها ، وكان يجاوره أيضًا فقر مدقع في الأحياء والقبائل القريبة منها بطبيعة الحال، وهنا يثور الإحساس بالفقر عند بعض الفقراء حين يجدون جيرانهم وأقرباءهم يتمتعون بالغنى، وهم يعانون القحط ، والجوع والفقر ، فتتطلع نفوسهم إلى الثراء حينما يجدونه قريب المنال، ولو بالصعلكة (٢) .

---

(١) ينظر : الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي للدكتور / يوسف خليف ص ٥٧ : ٥٩ ط / دار غريب – القاهرة .

(٢) ينظر : شعر الصعاليك منهجه وخصائصه للدكتور / عبد الحليم حفني ص ٥٨ ، ٥٩ .

وقبل الإسلام لم تكن هناك زكاة مفروضة على الأغنياء، بل أكلوا حقوق الفقراء ، مما زاد من حقد الفقراء عليهم ، ودفع بعضهم إلى السطو على أموال الأغنياء ، وسلبها ونهبها بلا وجه حق .

وقد عُرِفَ العصر الجاهلي بكثير من ألوان الفوضى، واستمرار الغارات، وتغلب القوي على الضعيف ، وهضم الغني حق الفقير تحت مبدأ القوة والذكاء والفطنة ، ومِنْ ثمّ كانت أعمال الشعراء الصعاليك مثارًا للإعجاب ، ومحلاً للرِّضي في ذلك العصر(١) .

يقول الدكتور / عبد الحليم حفني : « والواقع أن الصعاليك أثاروا في المجتمع الجاهلي موجة عاتية من الرعب والفزع ، كما تحدثنا بذلك أخبارهم وأحاديث المجتمع عنهم، فأرهبوا أصحاب الإبل على مراعيهم ونظائرهم ، وأرهبوا التجار في طرقهم ومسالكهم ، وأرهبوا المارة في سبلهم ومعابرهم ، ولكن ذلك لم يكن ليحط من قدرهم في المجتمع الجاهلي بالذات ، بل أحاطهم بهالة من الرهبة والإعجاب والإكبار ، وأصبحوا أمنية القبائل تتمنى كل قبيلة أن يكون من أبنائها من يشبه هؤلاء الأقوياء الذين ترتعد منهم فرائص البادية ...، وحتى حكماء العرب كانوا يرون مجد القبيلة وقوتها وحمايتها غاية تبررها كل الوسائل، ومن حكمهم المشهورة في ذلك قولهم: «ما خلا قوم من السفهاء إلا ذلوا»(٢).

وعلى الرغم من العوامل التي دعت هؤلاء الصعاليك إلى الصعلكة والسطو، والعدوان بكثرة في العصر الجاهلي ؛ حتى رضى عنها بعض الجاهليين؛ إلا أن كثيرًا من الأهل الأذواق السليمة ، والفطرة المستقيمة قد أدركوا بعقولهم المنيرة مدى خطورة الصعلكة على المجتمع الجاهلي، ودور هؤلاء الصعاليك في هدم أخلاق القبائل وتقبيح سيرتهم؛ ومن ثم نادى شيوخ القبائل بخلع هؤلاء الصعاليك من قبائلهم .

---

(١) ينظر : رحلة الشعر للدكتور / مصطفى الشكعة ص ٣٢٨ ط / الدار المصرية اللبنانية.
(٢) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه للدكتور / عبد الحليم حفني ص ٨٧ .

يقول د/ شوقي ضيف : « ويدخل فيهم الخلعاء الذي خلعتهم قبائلهم ونفتهم عنها؛ لكثرة جرائرهم وجناياتهم ، وكانوا يعلنون هذا الخلع على رؤوس الأشهاد في أسواقهم ومجامعهم، وقد يستجير الخليع بقبيلة أخرى فتجيره... ، ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك المشهورة ، وكانوا يمضون على وجوههم في الصحراء يتخذون النهب وقطع الطريق سيرتهم ودأبهم »[١] .

وكان من أهم شعراء صعاليك العصر الجاهلي عروة بن الورد العبسي الذي اشتهر بالسخاء والكرم، والعطف على الفقراء ، وتفريج الكربات، كما اشتهر بالعصبية لإخوانه من الصعاليك؛ حتى كان يلقب بعروة الصعاليك .

كما كان يلقب أيضًا بزعيم الصعاليك ، ومنهم أيضًا الشنفري الأزدي الذي كان يضرب به المثل في السرعة والعدو على الأعداء، والحذق والدهاء ، وهو صاحب لامية العرب الشهيرة التي ترجمت إلى كثير من لغات العالم .

ومن أشهرهم تأبط شرا : وهو ثابت بن جابر النهمي خال الشنفري وأصغر منه سنًا ، وكذا منهم السليك بن عمر السعدي المنسوب إلى السلكة فيقال: السليك بن السلكة وكان من أغربة العرب ؛ لأن أمه سوداء فورث ذلك منها .

ومن أشهر شعراء صعاليك العصر الجاهلي أيضًا : عمرو بن براقة الهمذاني ، نسبة إلى أمه براقة ، واسمه عمرو بن منبه بن يزيد الهمذاني كان رفيقًا للشنفري وتأبط شرا في الصعلكة ، وقد ذكره الدكتور / عبد الحليم حفني ضمن أسماء شعراء صعاليك العصر الجاهلي، وأفاض في ترجماتهم[٢] .

ولم يقف الإسلام موقفًا صامتًا من هؤلاء الشياطين في صعلكتهم، وأكلهم أموال الناس بالباطل – لا سيما – وقد فرضت الزكاة للفقراء في أموال الأغنياء ؛ مما لم يدع مجالاً لطعن الفقراء في أخلاق الأغنياء .

---

(١) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) للدكتور / شوقي ضيف ٦٧/١ ط / دار المعارف.

(٢) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه للدكتور / عبد الحليم حفني ص ١١٢ وما بعدها .

وقد تكفل الإسلام بحفظ النفس ، والمال والعرض يقول النبي (ﷺ) : « كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ دمه ، وماله ، وعرضه ... »[١] .

وقد حذر الإسلام من أكل أموال الناس بالباطل ، فقال – تعالى – : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٢] .

والسطو ، والفتك ، والصعلكة لون من ألوان الحرابة التي حدَّ الله – تعالى – لها حدودًا معينة في قوله – تعالى – : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[٣] .

إذا كان هذا هو موقف الإسلام من الصعلكة ، فهل قضى على هؤلاء الصعاليك أم لا؟

في الحقيقة إن كثرة هؤلاء الصعاليك ، وشهرتهم في العصر الجاهلي ، وارتباطهم بظروف البيئة الجاهلية وأحداثها ؛ مما جعلني أظن أن الصعلكة لم تكن إلا في العصر الجاهلي، وقد اتضح لي بعد ذلك أن الإسلام وإن حد من ظاهرة الصعلكة ، إلا أنه لم يقض عليها ، فهناك كثير من الشعراء الصعاليك الذين

---

(١) صحيح مسلم تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ١٩٨٦/٤ ط / دار إحياء التراث العربي – بيروت ، سنن الترمذي تحقيق / أحمد شاكر ٣٢٥/٤ ط الثانية سنة ١٣٩٥هـ ، سنن ابن ماجة تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ١٢٩٨/٢ ط / دار إحياء الكتب العربية.

(٢) آية (١٨٨) من سورة : البقرة .

(٣) آية (٣٣) من سورة : المائدة .

عاشوا في عصر صدر الإسلام مثل : أبي خراش الهذلي[١] ، وأبي الطمحان القيني[٢] ، وقد شهدا الجاهلية والإسلام ، فكانا من الشعراء المخضرمين .

ولا عجب في أن تنتقل ظاهرة الصعلكة إلى الشعراء المخضرمين ؛ لقوة اتصالهم بالعصر الجاهلي ، وتأثرهم بأحداثه القوية التي لم ينفكوا عنها مع إسلامهم ، ليس هذا فقط، بل نقلوا فكرة الصعلكة إلى بعض الشعراء الإسلاميين الذين لم يشاهدوا شيئًا من عصر الجاهليين .

ولا عجب في ذلك أيضًا فنوازغ الشر والفساد لها أثرها في كل عصر حتى في العصر الإسلامي ما دامت أسباب الشرِّ والفساد باقية تحت سماء الحياة الدنيا، فعالم البشر محفوف بنوازغ النفس ، والهوى ، والشيطان وحبّ الدنيا .

ولا يخفى على ذي لبٍّ ما وصل إليه الإسلام في عصر النبي (ﷺ) وصحابته الكرام من قوة في الخير والصلاح ، ومع ذلك لم يقض على هؤلاء الصعاليك قضاءً تامًا ، فنرى في خلافة الإمام علي (ﷺ) يظهر شبيب بن عمرو بن كريب أحد لصوص طيئ ، فيقطع الطريق ، وقد أرسل إليه الإمام علي أحمد بن شميط وأخاه في فوارس ، فهرب شبيب وقال[٣]:

ولما أن رأيت ابني شميطٍ ∴ بسكة طيئٍ والباب دوني

---

(١) هو : خويلد بن مرة من بين هذيل ، من مضر ، شاعر مخضرم ، وفارس فاتك مشهور أدرك الجاهلية والإسلام ، واشتهر بالعدو فكان يسبق الخيل ، أسلم وهو شيخ كبير ومات عام ١٥هـ . الأعلام للزركلي ٣٢٥/٢ ط / الخامسة عشر ٢٠٠٢م – دار العلم للملايين .

(٢) هو: أبو الطمحان القيني أحد بني القين ، واسمه حنظلة بن الشرقي ، وكان فاسقًا عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام وأسلم ، ولم ير النبي (ﷺ) وتوفى سنة ٣٠ هـ . ينظر : الحيوان للجاحظ ٤٥١/٧ ط / الثانية – دار الكتب العلمية بيروت ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٧٦/١ ط / ١٤٢٣هـ – دار الحديث – القاهرة .

(٣) ينظر : شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢٥٢/١ ط / دار القلم ــ بيروت ، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه للدكتور / عبد الحليم حفني ص ٩٩ .

تجللـــت العصـــا وعلمـــت أنـــي ∴ رهـــين مخـــيسٍ إن أدركـــوني
ولـــو أنـــي لبثـــت لهـــم قلـــيلاً ∴ لجرونـــــي إلى شـــــيخٍ بطـــــين
شـــديد مجـــامع الكـــتفين بـــاقٍ ∴ علـــى الحـــدثان مختلـــف الشـــئون

فلما رأى الإمام علي وصفه في شعره قال : والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة ، لو ظفرت به لصدقت ظنه يريد : لحبسته .

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان يظهر لنا مالك بن الريـب الـذي يعـد أشهر شعراء صعاليك العصر الإسلامي ، وهو من بني مازن التميمية ، وقد عاش في بداية عصر بني أمية، ثم ننتقل إلى العصر العباسي فنرى بكر بن النطاح الذي عاصر الرشيد، والمأمون ، وكان صعلوكًا يصيب الطريق ثم أقصر عن الصـعلكة وأقلع عنها كما ذكرت المصادر الأدبية .

وقد ذكر الدكتور عبد الحليم حفني كثيرًا من الشعراء الصـعاليك الـذين عاشوا في الإسلام على اختلاف عصوره المتتابعة من بداية صدر الإسلام وعصر الخلفاء الراشدين حتى العصر العباسي [١] .

ولا شك أن هذه العصور تعد من أزهى عصور الدولة الإسلامية ومع ذلك انتشرت فيها ظاهرة الصعلكة ، وقد حفظ لنا التراث العربي كثيرًا مـن أشـعارهم التي يفخرون فيها بصعلكتهم ، ويتجاهرون بظلمهم وعدوانهم؛ مما يـدل علـى ارتباط الصعلكة بنوازغ الشر والفساد في كل عصر من العصور .

ومن هنا زال تعجبي من وجود الصعلكة عند شعراء العصـر الإسـلامي، وعدم اقتصارها على شعراء العصر الجاهلي ، ليس هذا فقط ، بل إن هذا الأمر قد جعلني أعتقد وجود الصعلكة في العصر الحديث ، فما أكثـر اللصـوص وقطـاع الطرق في العصر الحديث! .

---

(١) ينظر : شعر الصعاليك منهجه وخصائصه د/ عبد الحليم حفني ص ١٢٦ وما بعدها .

فإن قلت : لِمَ لمْ نسمع عن شعراء صعاليك العصر الحديث ؟

قلت : لأن الشعر قد ضعف في العصر الحديث ، وقلَّ الاهتمام به، وقد كان الشعر هو السجل الأول لتاريخ هؤلاء الصعاليك ، فلما ضعف في العصر الحديث لم يهتم بذكر شيء من حياة صعاليك هذا العصر .

هذا بالإضافة إلى أن صعاليك العصر الجاهلي كانوا من أكثر العرب دراية بالشعر ، واللغة ، والأدب ، بخلاف صعاليك العصر الحديث فأكثرهم جُهالاً لا تراث لهم ، وقد جمعوا بين ظلام الجهل، وقبح الأخلاق ، ما دفعهم إلى الصعلكة وأكل أموال الناس بالباطل بلا رادع دين أو حياء .

ولم يقتصر الحد من ظاهرة الصعلكة على الإسلام فقط بحدوده الرادعة، بل إن دساتير الدول والشعوب أيضًا قد وضعت عقوبات مغلظة على من يسطو على أموال الناس، وأعراضهم ، وأرواحهم ؛ للحدِّ من هذه الظاهرة المتفشية في المجتمع الإنساني ، وتنفير الناس منها .

وأكثر صعاليك العصر الحديث من الخارجين على القانون ، والفارين من تنفيذ الأحكام الجنائية ، ومن ثم فهم مطاردون من قبل الحكومات كخلعاء القبائل من صعاليك العصر الجاهلي .

وقد جاء ذكر هؤلاء الصعاليك في بعض الروايات الحديثة باسم : مطاريد الجبل كشخصيات ثانوية، كما في روايات محمد صفاء عامر : ذئاب الجبل ، والضوء الشارد، مما يدل على وجود الصعلكة في كل عصر من العصور ، وإن اختلفت في شكلها ومضمونها من عصر إلى آخر .

ومن هنا فقد حلَّت القصة والرواية المصرية الحديثة محل الشعر في تصوير حياة صعاليك العصر الحديث ، وخروجهم على القانون وأكلهم أموال الناس بالباطل ، لقلة الاهتمام بالشعر في العصر الحديث .

وقد اتخذ صعاليك العصر الحديث أيضًا من الصحارى والقفار والجبال مسرحًا لممارسة صعلكتهم وسلبهم ونهبهم ، حتى سمُّوا بمطاريد الجبل .

والحق إن ظاهرة الصعلكة لم تنل حظها في الإسلام حتى عصرنا الحديث كما نالته في العصر الجاهلي ؛ لأن الإسلام قد شرع لها حدودًا رادعة، لمعاقبة مرتكبيها ، وكذا القانون الحديث كما ذكرت قبل ذلك ، ولا حكم أنسب من حكم الله – تعالى – للقضاء على هذه الظاهرة ، فقد أمر بقتلهم للقضاء عليهم لتخليص المجتمع من شرورهم ، أو صلبهم ؛ حتى يشل حركتهم وينفر الناس من فعلهم، أو قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف فلا يستطيعوا مزاولة الصعلكة مرة أخرى ، وليكون ذلك علامة على قبح أخلاقهم والتشنيع بهم، أو نفيهم من الأرض التي يعيشون فيها ، لتغريبهم حتى تضيق الأرض بهم فيضطروا إلى التوبة والرجوع عن صعلكتهم .

* * *

الفصل الثاني

أخلاق الشعراء الصعاليك ورأي النقاد فيهم

شغلت أخلاق الصعاليك بال كثير من الأدباء والنقاد القدامى ، والمحدثين حتى لا تكاد تجد كتابًا في تاريخ الأدب الجاهلي خاليًا من الحديث عن أخلاق الشعراء الصعاليك .

فها هو الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان يعجب بأخلاق عروة ابن الورد ، وكرمه وجوده ، فيقول : ما يسرُّني أن أحدًا من العرب ولدني إلا عروة بن الورد ، لقوله[١] :

إنّي امرُؤٌ عافي إنائِيَ شِركَةٌ ∴ وَأَنتَ امرُؤٌ عافي إنائِكَ واحِدُ
أُقَسِّمُ جِسمي في جُسومٍ كَثيرَةٍ ∴ وَأَحسو قَراحَ الماءِ وَالماءُ بارِدُ

فهو يشرك معه غيره في طعامه وشرابه، لشدة كرمه وجوده ، فيرى أثر هذا الكرم في أجسام الضيوف التي اعتادت الغذاء من طعامه وشرابه حتى قويت ونمت ، فيحرم نفسه من الطعام والشراب ليغذي به ضيوفه .

وأرى أن قوله هذا قد لا يخلو من الرِّياء والسمعة ، وحب الثناء والفخر

وذكر أبو حيان التوحيدي أن عروة بن الورد كان يقال له : عروة الصعاليك ؛ لأنه كان يجمع الفقراء ، ويؤويهم ، ويحسن إليهم[٢] .

وقد أثنى العلامة التبريزي على الشعراء الصعاليك ، ووصفهم بالفروسية والكرم والجود، وذلك في حديثه عن زعيمهم عروة بن الورد ، فقال: « هو شاعر من شعراء الجاهلية ، وفارس من فرسانها ، وصعلوك من صعاليكها

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦٦٥/٢ ط / ١٤٢٣هـ – دار الحديث – القاهرة ، ديوان عروة بنن الورد ص ٢٩ ، والبيتان من بحر الطويل .

(٢) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ٦٤/١ ط / أولى ١٤٢٤هـ – بيروت .

المعدودين المقدمين الأجواد ، وكان يلقبه عروة الصعاليك ؛ لجمعه إياهم، وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم»[١] .

واهتمام عروة بن الورد بشئون الصعاليك الفقراء ، وقيامه بأمرهم يعدُّ لونًا من ألوان التكافل الاجتماعي بين الصعاليك وبعضهم، وقد وضح الزمخشري – رحمه الله تعالى – مدى اهتمام عروة بن الورد بفقراء الصعاليك وذلك بطريقة عملية ، فقال : « قيل لعروة بن الورد : عروة الصعاليك ؛ لأنه كان إذا شكا إليه فتي من فتيان قومه الفقر أعطاه فرسًا ، ورمحًا ، وقال : إن لم تستغن بهما فلا أغناك الله يا فتى »[٢] .

ومن هنا كان عروة بن الورد يؤمن بالصعلكة إيمانًا قويًا ، ويشجع عليها، ويراها حلاً لعلاج مشكلة الفقر في عصره ، ولذا كان يقال له : عروة الصعاليك ، فكان زعيمًا لرابطة الصعاليك في العصر الجاهلي .

ولم يقتصر ثناء النقاد على زعيم الصعاليك فقط ، فنرى أبا عمرو الشيباني يذكر السليك بن السلكة ويثني عليه وعلى إخوانه من الصعاليك ، فيقول عنه : وهو أحد الصعاليك العرب الشجعان[٣] .

ونرى من أدبائنا المحدثين من يسير على هذا المنهج في المدح والثناء على أخلاق الصعاليك ، فها هو أستاذنا الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجى يصفهم بالشجاعة والكرم ، والإنسانية فيما بينهم ، فيقول عنهم : « وهم جماعة فقراء من قبائل شتى جمعت بينهم الخصاصة، والحاجة... ، فخرجوا على قبائلهم وتحللوا من نظمها ...، وأخذوا أنفسهم بالإغارة والنهب، وسلب القبائل والأفراد

---

(١) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١٥٩/١ – ط / دار القلم – بيروت – لبنان .

(٢) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار لجار الله الزمخشري ٩٢/٥ ط / الأولى ط ١٤١٢هـ – مؤسسة الأعلمي – بيروت .

(٣) ينظر : شرح المعلقات التسع لأبي عمرو الشيباني تحقيق وشرح / عبد المجيد همو ٢١٤/١ ط / الأولى ١٤٢٢هـ – بيروت – لبنان .

مالهم ثم توزيعها فيما بينهم، وكانوا رجالاً أشداء عدائين ... ، كرامًا ، حديدي الإرادة »[١] .

وقد نقل الدكتور / ناصر الدين الأسد حوار ثمامة بن الوليد مع الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور في الثناء على أخلاق عروة بن الورد ؛ حيث قال لهم المنصور : « يا ثمامة ، أتحفظ حديث ابن عمك عروة الصعاليك بن الورد العبسي؟ فقال ثمامة : أي حديثه يا أمير المؤمنين؟

فقد كان كثير الحديث حسنه، فلما ذكر له المنصور الحديث قال ثمامة : إن له عندنا أحاديث كثيرة ، ما سمعنا له بحديث أظرف من هذا »[٢] .

وهذا يدل على إعجاب الدكتور/ناصر الدين الأسد بأخلاق عروة بن الورد خاصة ، بل وبأخلاق الصعاليك على وجه العموم .

وقد سار الدكتور/ علي الجندي على نفس الدرب في الثناء على أخلاق الصعاليك بوجه عام ، فمدحهم بالقوة والسرعة ، والشهامة ، والبطولة ، فقال : «وكان الصعاليك مشهورين بالجري السريع ... ، ولكنهم كانوا يتمسكون بكثير من صفات البطولة والشهامة »[٣] .

وقد سار أستاذنا الدكتور / علي طلب أيضًا على هذا النهج في الثناء على أخلاق الصعاليك ، فقال تحت عنوان : منهج الصعاليك وأخلاقهم :

«١- كان الصعاليك شجعانًا مغامرين لا يبالون الموت؛ لأنهم يخاطرون بحياتهم لتحقيق هدف شريف في نظرهم هو كفكفة دموع البائسين وتخفيف الآلام عن المحرومين .

---

(١) قصة الأدب في الحجاز لعبد الله عبد الجبار ، محمد عبد المنعم خفاجى ٤٢٥/١ ط / مكتبة الكليات الأزهرية .

(٢) مصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد ٢٣٢/١ ط / السابعة ١٩٨٨م ط / دار المعارف – مصر .

(٣) في تاريخ الأدب الجاهلي لعلي الجندي ٤٣٩/١ ط / ١٤١٢هـ – دار التراث الأول .

٢ – والصعاليك ذوو أنفة وإباء وشمم يسلبون ولا يطلبون ، ويصبرون على الجوع مهما بلغ بهم الجهد ؛ حتى يغنموا برماحهم وسيوفهم .

٣ – حقق الصعاليك مبدأ التضامن تحقيقًا عمليًا إذ عطف بعضهم على بعض ، وشارك بعضهم بعضًا في الأسلاب ، وتقاسموا ما غنموا ، وأشركوا في القسمة إخوانهم العاجزين فحققوا بذلك نوعًا من الاشتراكية العملية .

٤ – كانوا يكرهون الأغنياء البخلاء ، وكانوا يسطون على أموالهم وقوافلهم، أما الأغنياء الكرماء فلا يقتربون من أموالهم وقوافلهم .

٥ – كانوا ذوي نجدة لمن يستجير بهم ، يسارعون لنجدته ، وكانوا يعطفون على الفقراء العاجزين عن الكسب والإغارة ، فكانوا يعطونهم من الأسلاب أنصبة مثل أنصبتهم .

٦ – كانوا يفخرون بالصعلكة؛ لأنها شيمة الشجعان الأقوياء ، ولا يجدون في ذلك عيبًا ، ويتغنون بالأنفة والكرم، وشدة البأس ، وقوة الشكيمة، وعدم الخوف من التهديد والوعيد ، كما كانوا يباهون بمغامراتهم وبصبرهم على الشدائد ، والمحن ، والأهواء »[١] .

كما أثني على أخلاق الصعاليك أيضًا أستاذنا الدكتور / زهران محمد جبر في كتابه (في الأدب الجاهلي) فقال عنهم : « ... وكانوا يفخرون بالصعلكة لأنها شيمة الشجعان الأقوياء ، ويتمتعون بالأنفة، والكرم، والمحبة، وشدة البأس ، وقوة الشكيمة ، وعدم الخوف من التهديد والوعيد، كما كانوا يتباهون بمغامراتهم وبصبرهم على الشدة ، واحتمالهم الجوع»[٢] .

---

(١) دراسات في الأدب الجاهلي للأستاذ الدكتور / علي محمد طلب ص ١٩٣ ، ١٩٤ ط / الثالثة ١٤٢٨هـ – مروة الخير – أسيوط .

(٢) في الأدب الجاهلي للأستاذ الدكتور / زهران محمد جبر ص ١٣٦ ، ١٣٧ ، ط / الأولى ط/ ١٤٢٢هـ – مطبعة الأزهر – أسيوط .

ومع احترامي وتقديري الكامل لهؤلاء الكوكبة من الأدباء والنقاد القدامى والمحدثين ، واعترافي بما لهم عليَّ ، وعلى الباحثين من فضل كبير ، غير أنني أثناء تدريسي لمادة تاريخ الأدب في العصر الجاهلي قد أثارت انتباهي هذه الأقلام الكثيرة التي انكبت على التغني بأخلاق الصعاليك ، وترك الجوانب المظلمة في حياتهم وشعرهم مع أنهم صعاليك، فيكف لو كانوا ملائكة بين البشر ؟

فالذي يقرأ ما كتب عن أخلاق الصعاليك يتمنى لو كان صعلوكًا ، ولذا فقد سلطت قلمي على الجوانب المظلمة في حياتهم وشعرهم ، حتى تتضح الصورة الحقيقية لهؤلاء الصعاليك في أذهان طلاب العلم والأدب.

وقد ذكرت في تمهيد هذا البحث أن الفتك والتلصص ، وقطع الطريق هو أحد المعاني الأصلية للصعلكة التي هي من نوازغ الشياطين(١).

ومن هنا فجوانب الشرِّ المظلمة هي الأصل في حياة هؤلاء الصعاليك ، ويبدو أن كثرة حديث هؤلاء الصعاليك عن أنفسهم ، وفخرهم بالكرم ، والشجاعة وتكافلهم الاجتماعي بينهم ، مما أثار انتباه الأدباء والنقاد إلى مثل هذه الأخلاق المثالية الكائنة في قلوب هؤلاء اللصوص .

فها هو عروة بن الورد يحدثنا عن كرمه فيقول (٢) :

فِراشي فِراشُ الضَيفِ وَالبَيتُ بَيتُهُ ∴ وَلَم يُلهِني عَنهُ غَزالٌ مُقَنَّعُ

أُحَدِّثُهُ إِنَّ الحَديثَ مِنَ القِرى ∴ وَتَعلَمُ نَفسي أَنَّهُ سَوفَ يَهجَعُ

ويتحدث عن إطعامه للفقراء ، فيقول(٣) :

سَلي الطارِقَ المُعتَرَّ يا أُمَّ مالِكٍ ∴ إِذا ما أَتاني بَينَ قَدري وَمَجزِري

أَيُسفِرُ وَجهي إِنَّهُ أَوَّلُ القِرى ∴ وَأَبذُلُ مَعروفي لَهُ دونَ مُنكَري

---

(١) ينظر : التمهيد ص من البحث .

(٢) ديوان عروة بن الورد العبسي ص ٤٤ ط ١٣٨٤هـ – دار صادر بيروت ، والبيتان من بحر الطويل .

(٣) المصدر السابق ص ٤٩ والبيتان من بحر الطويل .

ولكن أي كرم ، وأي إنفاق هذا الذي يكون مصدره هو السلب والنهب، وأكل أموال الناس بالباطل؟ .

وكما تقول العباسة بنت الخليفة المهدي لوكيلها الذي كان يأخذ مالها ظلمًا ، ويتصدق منه ، فكتبت إليه : (١)

أَتَسلُبَني مالي وَإِن جاءَ سائِلٌ ∴ رَقَقتَ لَهُ أَن حَطَّهُ نَحوَكَ الفَقرُ

كَشافِيَةِ المَرضى بِعائِدَةِ الزِنا ∴ تُؤَمِّلُ أَجراً حَيثُ لَيسَ لَها أَجرُ

وأي شجاعة هذه التي تكون بالفتك غدرًا وخلسةً بأناس بريئين لا ذنب لهم ، وسفك دمائهم للإغارة على أموالهم وأعراضهم ؟

وأما تكافلهم الاجتماعي فهو إحياء لصعلكتهم ؛ حتى يرغب الناس في الصعلكة فيكثر هؤلاء الصعاليك في مجتمعهم ، كما أنه بمثابة المعاش والضمان الاجتماعي لهم من العجز والمرض، وكبر السن ، فهم معرضون لذلك لكثرة غاراتهم ومخاطرهم ، ومن ثمَّ فهو أمر تطلبته ضرورة حياتهم .

ومهما حاول هؤلاء الصعاليك إخفاء مساوئهم الخُلقية ، ونزغاتهم الشيطانية ، فهي واضحة ولا مبرر لها ، فأي أعراف أو تقاليد تجيز لهم السطو على الآخرين ؟ وأي شرع أو دين يقضي لهم بأكل أموال الناس بالباطل؟

ولا أدل على قبح أخلاقهم من نفور المجتمع منهم، وبراءة قبائلهم من أفعالهم القبيحة ، وخلعهم لهم على رؤوس الأشهاد في محافل العرب وأسواقها، يقول الدكتور/ شوقي ضيف : « ويدخل فيهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم عنها ؛ لكثرة جرائرهم وجناياتهم ، وكانوا يعلنون هذا الخلع على رؤوس الأشهاد في أسواقهم ومجامعهم ، وقد يستجير الخليع بقبيلة أخرى فتجيره ، وبذلك يصبح له حق التوطن في القبيلة الجديدة، كما يصبح من واجبه الوفاء بجميع حقوقها

(١) نزهة الجلساء في أشعار النساء للسيوطي ص ٦٦ ، ٦٧ ط / مكتبة القرآن بولاق – القاهرة ، والبيتان من بحر الطويل .

مثل أبنائها ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك المشهورة ، وكانوا يمضون على وجوههم في الصحراء يتخذون النهب وقطع الطريق سيرتهم ودأبهم »[١] .

ومما يدل على قبح الصعلكة أيضًا وهدِّها من الأفعال القبيحة أنك ترى كثيرًا من الشعراء الصعاليك الإسلاميين يعلنون توبتهم عن الصعلكة ، ورجوعهم عنها بعد اعترافهم بقبح أفعالهم .

فها هو عبيد بن أيوب العنبري السعدي نسبة إلى بني سعد ، والذي كانوا يعدونه من اللصوص يتحدث عن توبته حديثًا يظهر فيه إنكاره لما أسلف من أعمال قبيحة لا تتفق مع العقل ، فيقول [٢] :

يا رَبِّ عَفوَكَ عَن ذي تَوبَةٍ وَجِلٍ ∴ كَأَنَّهُ مِن حِذارِ النّاسِ مَجنونُ

قَد كانَ قَدَّمَ أَعمالاً مَقارِبَةً ∴ أَيّامَ لَيسَ لَهُ عَقلٌ وَلا دينُ

وقد عده الدكتور/ عبد الحليم حفني من صعاليك العصر الإسلامي التائبين[٣] ، كما عد يزيد بن الصيقل العقيلي ، فقال عنه : أما يزيد العقيلي فقد كان كما يبدو صادق التوبة عن الصعلكة مطمئن النفس في رجوعه عنها فقد كان يسرق الإبل ثم تاب، ويبدو من شعره ما كان له من رهبة وخطورة عند أصحاب المخائض من الإبل، ولذلك يطمئنهم بتوبته، فيقول[٤] :

أَلا قُل لِأَربابِ المَخائِضِ أَهمِلوا ∴ فَقَد تابَ مِمّا تَعلَمونَ يَزيدُ

وَإِنَّ اِمرِأً يَنجو مِنَ النارِ بَعدَما ∴ تَزَوَّدَ مِن أَعمالِها لَسَعيدُ

---

(١) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) للدكتور / شوقي ضيف ٦٧/١ ط / دار المعارف

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ٢٨٥/٣ ط / ١٤٢٣هـ – دار مكتبة الهلال – بيروت – لبنان ، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه للدكتور / عبد الحليم حفني ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، والبيتان من بحر البسيط .

(٣) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه للدكتور / عبد الحليم حفني ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٤) ينظر: عيون الأخبار لابن قتيبة ٣٩٨/٢ ط ١٤١٨هـ – دار الكتب العلمية – بيروت ، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه للدكتور/ عبد الحليم حفني ص١٣٢ ، والبيتان من الطويل .

ولو كانت الصعلكة محمدة ، لما تاب هؤلاء الشعراء الصعاليك منها؛ ومن ثم فوصفهم بالكرم والمروءة يحتاج إلى تأنٍّ في الحكم على أخلاقهم ، كيف لا؟ وقد تحدث المبرِّد على لسان هؤلاء الصعاليك ، فقال:

« نحن الصعاليك لا طاقة لنا على المروءة »[١] .

وقد أشار ابن المعتز في طبقاته إلى أن الخليفة العباسي هارون الرشيد كان يتأذى من تغني هؤلاء الصعاليك بالفخر الكاذب ، حيث أرسل إلى يزيد بن مزيد ، وقال له : يا يزيد : من الذي يقول :

وَمَن يَفتَقِر مِنّا يَعِش بِحُسامِهِ ∴ وَمَن يَفتَقِر مِن سائِرِ الناسِ يَسأَلِ

وَنَحنُ وُصِفنا دونَ كُلِّ قَبيلَةٍ ∴ بِشِدَّةِ بَأسٍ في الكِتابِ المُنَزَّلِ

فقال : والذي بعثك بالخلافة ما أعرفه ، قال الخليفة: فمن الذي يقول :

فَإِن يَكُ جدُّ القَومِ فِهرِ بنَ مالِكٍ ∴ فَحَسبِي فَخراً فَخرُ بَكرِ بنِ وائِلِ

وَلَكِنَّهُم فازوا بِإِرثِ أَبيهِمُ ∴ وَكُنّا عَلى أَمرٍ مِنَ الأَمرِ باطِلِ

فقال : لا وحقك يا أمير المؤمنين ، ما أعرفه ، قال الخليفة : بلى، أتظن يا يزيد أني أوطئك فراشي وبساطي ، وأقلدك أمري ، وأنا لا أعرف سرائرك، ومخبأتك ؟

والله إن عيوني عليك في فراشك ، فلا تجعلن على نفسك سلطانًا ، هذا جلف من أجلاف ربيعة آويته عندك ، ومكنته من مجلسك ، فقال ما قال ، فأتني به حتى أعرفه نفسه ، قال : فانصرفت وأحضرت بكر بن النطاح ، فأعلمته القصة وأمرت له بألفي درهم ، وكان له عندي دين فأسقطته وقلت له: الحق بالجزيرة ، فخرج إليها ، ولم يزل مستترًا بها حتى مات الرشيد[٢] .

---

(١) الكامل في اللغة والأدب للمبرد تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ٣٠٨/١ ط / الثالثة ١٤١٧هـ – دار الفكر العربي – القاهرة .

(٢) ينظر : طبقات الشعراء لابن المعتز تحقيق / عبد الستار فراج ٢١٧/١ ، ٢١٨ ط / الثالثة – دار المعارف – القاهرة ، والأبيات من بحر الطويل .

ويعد بكر بن النطاح من الشعراء الصعاليك الذين عاشوا في العصر العباسي الأول ، وقد عاصر الخليفة الرشيد كما في القصة السابقة .

وقد عدَّ ابن قتيبة سعد بن ناشب من مردة العرب وشياطينهم(١) .

وهو من الشعراء الصعاليك الذين عاشوا في الإسلام ، وهو مازني من تميم، وقد ضمَّه الدكتور / عبد الحليم حفني ضمن الإسلاميين من الشعراء الصعاليك (٢) .

ومن هنا يتضح أن من النقاد القدامى من لم ينخدع بشعر الصعاليك، وتغنيهم فيه بالأخلاق المثالية ، فقبَّح صعلكتهم ووضعهم في الموضع اللائق بهم .

وقد فرَّق قدامة بن جعفر بين مدح الصعاليك ، ومدح غيرهم من طبقات الناس وجعلهم من القسم الثاني من طبقة السُّوقة ، فقال : «وأما مدح السوقة من البادية والحاضرة، فينقسم قسمين، بحسب انقسام السوقة إلى المتعيشين بأصناف الحرف وضروب المكاسب، وإلى الصعاليك والخراب والمتلصصة ومن جرى مجراهم، فمدح القسم الأول: يكون بما يضاهي الفضائل النفسانية ... ومدح القسم الثاني يكون بما يضاهي المذهب الذي يسلكه أهله من الإقدام والفتك والتشمير والجلد والتيقظ والصبر، مع التخرق والسماحة، وقلة الاكتراث للخطوب الملمة»(٣).

وقد سماهم البغدادي باسم اللصوص أو الصعاليك (٤) .

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦٨٥/٢.

(٢) ينظر : شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ص ١٣٣ .

(٣) نقد الشعر لقدامة بن جعفر البغدادي ص ٢٨ ، ٢٩ ط / الأولى ١٣٠٢هـ .

(٤) ينظر : خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي تحقيق وشرح / عبد السلام هارون ٤٥١/٩ ط / الرابعة ١٤١٨هـ – مكتبة الخانجي – القاهرة .

فأيُّ سماحة هذه التي تكون في السطو على أموال الناس وأكلها بالباطل؟ ومن ثمَّ فهذه الصفات تعدُّ محمدة بين الصعاليك وبعضهم ومن تأثر بهم ، وكان على شاكلتهم ، لا بين أشراف الناس وصالحيهم .

وقد تحدث الدكتور / مصطفى الشكعة في كتابه (رحلة الشعر) عن الشعراء الصعاليك وسماهم أيضًا باللصوص ، وذكر أن أبا سعيد السكري قد ألف فيهم كتابًا مستقلاً جعل عنوانه (الشعراء اللصوص) ، وقد فقد هذا الكتاب، ولم يرتض الدكتور / الشكعة عمل هؤلاء الشعراء الصعاليك ، فقبحه وجعله جرمًا غير مشروع ، وعاب تصدقهم بأموال غيرهم، فقال : وهكذا نجد هؤلاء الشعراء يسيرون في درب واحد هو درب الجريمة ، وهو عمل غير مشروع فلا ينبغي للمرء أن يرتكب جرمًا ؛ لكي يتصدق بحصيلة جرمه، وما ينبغي الإشارة إليه هو أن بعض هؤلاء الصعاليك كانوا من الأشرار المنحرفين الذين امتهنوا اللصوصية عن رضا، واختيار وأكثرهم من الذين خلعتهم قبائلهم، تخلصًا من سوء سيرتهم، وتبرؤًا من جرائمهم ، وبعضًا آخر من أبناء الإماء السود الذين لم تعترف بهم قبائلهم كأبناء الحرائر ، فلم يتقبلوا هذا المنهج وتمردوا عليه(١) .

ومن خلال ما سبق يتضح أن الصعلكة تحمل في معناها اللغوي الأصيل معنى الشيطنة والفتك، والتلصص ، وجرى ذكر هؤلاء الصعاليك باسم الشياطين أو اللصوص عند بعض النقاد القدامى ، والمحدثين ، كما ورد خلع هؤلاء الشعراء الصعاليك من قبائلهم ، وبراءة القبائل من أفعالهم القبيحة حتى اضطروا إلى التحالف فيما بينهم والتكافل الاجتماعي لضرورة حياتهم الصعبة وتعرضهم للعجز في أي وقت، كما ورد توبة بعضهم ؛ مما يدل على قبح هذه الأفعال التي قد تابوا منها .

---

(١) ينظر : رحلة الشعر للدكتور / مصطفى الشكعة ص ٣٢٨ ، ٣٤٦ . ط / الدار المصرية اللبنانية .

وأيضًا ورد ذم القرآن الكريم لهم وعدهم ممن يحاربون الله – تعالى – ورسوله ، ويسعون في الأرض فسادًا ، فحدَّ لهم حدودًا ؛ تشنيعًا لقبح أفعالهم؛ ومن ثم فلا داعي لتصوير أخلاقهم وكأنهم ملائكة بين البشر ، والتغني بمروءتهم، وكرمهم ، وشجاعتهم وتكافلهم فيما بينهم .

وقد حكى المبرد قولهم : « نحن الصعاليك لا طاقة لنا على المروءة»(١) .

وهذا يدل على أن المروءة ليست أصيلة في أخلاقهم ، وإنما يتحدثون عنها بلسانهم ويفخرون بها في شعرهم ؛ ليخفوا أفعالهم القبيحة، وإلا فكيف يأكلون أموال غيرهم ويغتصبونها ظلمًا وعدوانًا ثم يتصدقون منها، فهل هذا من الكرم؟ كلا والله فالله طيب لا يقبل إلا طيبًا ، وتقاليد المجتمع منذ الجاهلية ترفض ذلك، وتعده جرمًا شنيعًا، كما ترفض جرائمهم وعدوانهم على الآخرين بغير حق ؛ لأنه ليس من الشجاعة في شيء.

وقد أكثر هؤلاء الصعاليك في شعرهم من الفخر بالأخلاق المثالية كالمروءة ، والكرم، والشجاعة ، وعلو الهمة، والتكافل الاجتماعي، مما ألفت انتباه كثير من النقاد إلى التغني بالأخلاق المثالية عند الصعاليك .

وربما كان هذا من باب الإعجاب الفني بشعر الفخر عند هؤلاء الصعاليك أو من باب الاندهاش بمجيء أفعال الخير من مثل هؤلاء اللصوص.

وقد جئت في هذا البحث ؛ لأبحث عن ما استتر من الأفعال والصفات القبيحة في شعر الصعاليك ، والجوانب المظلمة في حياتهم وأخلاقهم لا سيما وقد أهملها الباحثون ، فضلاً على أن هذه الصفات الرديئة هي التي تناسب نزغات الشر التي في نفوسهم ، كما تناسب سطوهم وعدوانهم ، وأفعالهم القبيحة، فهي المضمون الأصلي للصعلكة في أدقِّ معانيها كما تقدم في تمهيد البحث .

---

(١) الكامل في اللغة والأدب للمبرد تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ٣٠٨/١ .

ولا تخفى صعوبة البحث في هذه الصفات القبيحة ، والنزغات الشيطانية التي حواها شعر الصعاليك، وإن تظاهروا بعكسها من المروءة والنزعات الإنسانية وعلى كلٍّ فلست أنفي ما ورد عن الشعراء الصعاليك من بعض الصفات المثالية إذا لم تعارض العرف ، والعقل، والشرع في شيء، فإذا طاب لهم مال حلال بعيدًا عن الصعلكة والسلب والنهب ، وأنفقوا منه، فيا له من كرم وجود! .

وإنفاق الفقير وكرمه أحب إلى الله – تعالى – من كرم الغني، وكذا إذا ساعدوا ضعيفًا أو أغاثوا ملهوفًا لا بقصد إعانته لمزاولة الصعلكة ، فيا لها من شهامة ومروءة وشجاعة !! .

لكني أرى أن جوانب الخير والشر إذا اجتمعا في بوتقة واحدة فلابد وأن يتغلب أحدهما على الآخر، وجوانب الشر في الصعاليك أوسع وأعمق ، ويكفي فيها سفكهم للدماء ، وسلبهم أموال الناس وأعراضهم بغير حق ؛ ومن ثم فلا داعي للتمجيد في أخلاقهم ؛ حتى لا يقتدى بهم شبابنا وطلابنا إلا إذا تابوا من صعلكتهم .

ولا شك أنه بإبراز جوانب الشر تتضح الصورة الكلية لأخلاق الصعاليك عند النقاد والأدباء والباحثين كما سيأتي بعد ذلك – إن شاء الله تعالى – في الفصل القادم .

* * *

الفصل الثالث

أهم مظاهر النزغة الشيطانية في شعر الصعاليك

إذا كانت الصعلكة – في أصل معناها اللغوي – ترد بمعنى الفتك ، والتلصص ، فلابد وأن يظهر أثر هذا المعنى في شعر الصعاليك ، ومن ثم فمهما أخفى هؤلاء الصعاليك نزغات الشر والفساد ، وأظهروا نزعات الخير والإنسانية فلابد وأن يكشف شعرهم نزغاتهم الشيطانية المبنية على الشر والفساد، ولا عجب في ذلك ، فالشعر هو المرآة التي تعكس ما في قلب الشاعر من خير ، أو شر ، وما يعتريه من همٍ وقلق وحزن، أو سعادة وفرح؛ ولذا فقد قامت بعض النظريات الحديثة على التعرف على نفسية الشاعر وحياته وبيئته من خلال شعره .

ومن هنا فقد تعددت مظاهر النزغة الشيطانية في شعر الصعاليك ، وكان من أهمها الآتي :

١ ـ التمرد على القضاء والقدر :

لا شك أن فكرة القضاء والقدر كانت موجودة في العصر الجاهلي في ديانات أهل الكتاب، فها هو السموأل بن عادياء اليهودي كان يؤمن بقضاء الله – تعالى – وقدره ، فيرضى بالقليل من الرزق إذا كان حلالاً طيبًا ، ويكره الكثير منه إذا كان حرامًا خبيثًا ، يقول السموأل بن عادياء[(١)]:

يَنفَعُ الطَيِّبُ القَليلُ مِنَ الرِز ∴ قِ وَلا يَنفَعُ الكَثيرُ الخَبيتُ

بَل لِكُلٍّ مِن رِزقِهِ ما قَضى اللَـ ∴ ـهُ وَإِن حَزَّ أَنفَهُ المُستَميتُ

أما الشعراء الصعاليك ، فقد كانوا يبغضون الفقر والفقراء ، ويحبون الغنى والثراء بأي طريق كان ، فلم يرضوا بالفقر الذي قدره الله – تعالى – فيهم

---

(١) ديوان السموأل بن عادياء تحقيق د/ واضح الصمد ص ٨٦ بحر الخفيف ط / الأولى ١٤١٦هـ دار الجيل – بيروت .

وأخذوا يطلبون الغنى والثراء بطرق تكرهها تقاليد المجتمع الجاهلي قبل أن يأباها الإسلام ويحدَّ لها حدودًا رادعة .

يقول عروة بن الورد [١] :

دَعيني لِلغِنى أَسعى فَإِنّي ∴ رَأَيتُ النَاسَ شَرَّهُمُ الفَقيرُ
وَأَبعَدُهُم وَأَهوَنُهُم عَلَيهِم ∴ وَإِن أَمسى لَهُ حَسَبٌ وَخَيرُ
وَيُقصيهِ النَديُّ وَتَزدَريهِ ∴ حَليلَتُهُ وَيَنهَرُهُ الصَغيرُ
وَيُلفى ذو الغِنى وَلَهُ جَلالٌ ∴ يَكادُ فُؤادُ صاحِبِهِ يَطيرُ
قَليلٌ ذَنبُهُ وَالذَنبُ جَمٌّ ∴ وَلَكِن لِلغِنى رَبٌّ غَفورُ

من الواضح أن الأبيات تفوح منها روائح الحقد على الأغنياء ، حيث أكثر الشاعر من ذكر مزايا الغنى التي يتمتع بها الأغنياء ، فهو يرى أن شر الناس هو الفقير وإن كان عريق الحسب والنسب، وخير الناس هو الغني وإن كان لا حسب له، أو له حسب وضيع، فهو لا يلقى من الناس إلا ما يثلج قلبه من الإعزاز والتكريم، والترحيب، كما يرى أن كثرة الجرائم والذنوب لا تؤثر في منزلة الغني، ولا تضعف من مكانته بين الناس؛ لأن ذنوبه وآثامه كلها مغفورة ، ومنْ ثمَّ فله أن يفعل ما شاء من الجرائم والذنوب والآثام .

والحق إن جميع المجتمعات منذ العصر الجاهلي تنفر من الفقر وتقدِّس الغنى والأغنياء، لكنها أيضًا تنفر من الرذيلة والفساد بشتى صوره ، وتقدس المروءة والأخلاق تقديسًا عاليًا ؛ حتى جعلوها شرطًا في شيخ القبيلة وسيادتها وإن كان ماله قليلاً ، يقول حسان بن ثابت[٢] :

نُسَوِّدُ ذا المالِ القَليلِ إِذا بَدَت ∴ مُروءَتُهُ فينا وَإِن كانَ مُعدِما

(١) ديوان عروة بن الورد ص ٤٥ ط / ١٣٨٤هـ – دار صادر – بيروت ، والأبيات من بحر الوافر .

(٢) ديوان حسان بن ثابت ص ٢٢٠ ط ١٣٩٨هـ – دار بيروت . بحر الطويل .

وهذا على عكس منهج الصعاليك الذين كانوا يتطلعون إلى المال والثراء عنوةً بطرق غير مشروعة تنفر منها تقاليد الإنسانية ، وشرائع الله السماوية ، فلو سعى عروة إلى المال والثراء بطرق شرعية لما عيب في ذلك ، لكن القدر لم يحالفه في الغنى والثراء بطرق سليمة ، فتمرد على القدر وأبى إلا أن يكون غنيًا ولو بالمال الحرام، فسعى في جمعه من السطو والعدو على الأبرياء بطريقة مزرية تنفر منها الفطرة الإنسانية المستقيمة .

ونرى بعض النقاد القدامى المعتدلين ينكر بعض أشعار الصعاليك ، فلم ينخدع بظاهر معانيها وقيمتها الفنية عن أثرها السيء في نفس السامع والمتلقي، فها هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب يطلب من مؤدِّب أولاده ومعلمهم أن لا يروي لهم رائية عروة بن الورد التي مطلعها[١]:

دَعيني لِلغِنى أَسعى فَإِنّي ∴ رَأَيتُ النّاسَ شَرُّهُمُ الفَقيرُ

يبدو أنه كان يخشى على أولاده من التمرد على القدر، واحتراف الصعلكة؛ حقدًا على الأغنياء ، وجلبًا للغنى بأي طريق كان .

وها هو أبو النشناش النهشلي يتمرد على الفقر الذي قدره الله عليه، ويفضل الموت على أن يعيش فقيرًا ، فيقول[٢] :

فَلَلمَوتُ خَيرٌ لِلفَتى مِن حَياتِه ∴ فَقيراً وِمَن مَولىً تَدِبُّ عَقارِبُه

فمت مُعدِمًا أَو عش كَريماً فَإِنَّني ∴ أَرى المَوتَ لا يَنجو مِنَ المَوتِ هارِبُه

---

(١) ينظر : ديوان عروة بن الورد ص ٤٥ بحر الوافر .

(٢) الأصمعيات للأصمعي تحقيق / أحمد شاكر ١١٩/١ ط / السابعة – دار المعارف – مصر ، الجليس الصالح الكافي لأبي الفرج النهرواني ٥٢١/١ تحقيق عبد الكريم الجندي ط / الأولى ط / ١٤٢٦هـ – دار الكتب العلمية – بيروت ، الحماسة البصرية لأبي الحسن البصري تحقيق مختار الدين أحمد ١١٢/١ ط / عالم الكتب – بيروت ، والبيتان من الطويل .

وهو هنا يفضل الموت ولو بسبب سطوه وعدوانه على الآخرين على حياة الفقر؛ ومن ثمَّ فلن يكف أبدًا عن الحرابة والسطو على حقوق الأبرياء .

وقد أفصح عمرو بن براقة الهمداني عن منهجه في التمرد على الفقر وطلب الغنى فقال[١] :

وَمَن يَطلُبِ المَالَ المُمَنَّعَ بِالقَنا ∴ يَعِش مُثرِيّاً أَو تَخترِمهُ المَخارِمُ

فالمراد بالمال الممنع : هو ملك الغير الممنوع عنهم بحيازة الغير له ، فالذي يسطو عليه إما أن يفرَّ هاربًا من الفقر متمتعًا بهذا المال الممنوع والحرام، أو تكتنفه المصائب التي تهلكه وذلك إذا دافع صاحب المال بقوة عن ماله ، وعلى كلا الحالين فلن يعيش فقيرًا .

أما بكر بن النطاح فنراه يأبى ذُلَّ السؤال على نفسه ، كما يأبى عيشة الفقر، فإذا افتقر تمرد على فقره وتقلد سيفه القاطع الحاد، ليسطو به على أموال الأبرياء من البشر ، فيجلب الغنى لنفسه .

يقول بكر بن النطاح[٢] :

وَمَن يَفتَقِر مِنَّا يَعِش بِحُسامِهِ ∴ وَمَن يَفتَقِر مِن سائِرِ النَّاسِ يَسأَلِ

ومن العجيب أنه يفخر بعَرْبَدَتِهِ ، وسطْوِه على أموال الأبرياء ، ولا شك أنه لون من ألوان الغرور والكبرياء ، فبأى منطق يستحلون أموال الآخرين بغير

---

(١) عيون الأخبار ٣٤٢/١ ط١٤١٨هـ – دار الكتب العلمية – بيروت ، حماسة القرشي لعباس بن محمد القرشي تحقيق/خير الدين قبلاوي ٨٨/١ ط١٩٥٥م – وزارة الثقافة – دمشق .

(٢) ينظر : زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق الحصري القيرواني ١٠٣٧/٤ ط/ دار الجيل بيروت ، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهاني ١١٦/١ ط / الأولى ١٤٢٠ه – دار الأرقم – بيروت ، المستطرف في كل فن مستظرف لأبي الفتح الأبشيهي ٢٣٢/١ ط / الأولى ١٤١٩ه – عالم الكتب – بيروت .

حق؟ إنه منطق التمرد على الفقر الذي قدره الله – تعالى – عليهم ، ومنطق عدم الرضا بالقضاء والقدر ، فما ذنب الأبرياء في ذلك ؟

فإن قيل : إن فكرة القضاء والقدر ، والحلال ، والحرام لم تكن معلومة في العصر الجاهلي ؛ قلت : بل كانت معلومة ، وقد جاء كثير منها في شعر شعراء اليهودية والنصرانية ، وقد ذكرت نموذجًا عليها من شعر السموأل بن عادياء اليهودي كما تقدم(١) .

هذا بالإضافة إلى أن بكر بن النطاح قد عاش في صدر الدولة العباسية وذلك في قلب الخلافة الإسلامية ومع ذلك يفخر بصعلكته وتمرده على الفقر الذي قدره الله – تعالى – عليه وعلى إخوانه من الصعاليك ، ومن ثم فمبادئ الصعلكة عندهم لم يغيرها الإسلام إلا عند من تاب منهم.

٢ ـ التجاهر بالفسق وسفك الدماء بغير حق :

من أهم ما يميز شعر الصعاليك التجاهر بالفسق ، ولا سيما في سفك الدماء وقتل نفوس الأبرياء بغير حق بلا رادع دين أو ضمير ، فها هو الشنفري الأزدي في لاميته الشهيرة يقول(٢) :

وَلَيلَـةِ نَحـسٍ يَصـطَلِي القَـوسَ رَبُّهـا ∴ وَأَقطُعَـهُ اللائـي بِهـا يَتَنَبَّـلُ(٣)

(١) ينظر : البحث ص

(٢) ينظر : خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر البغدادي ٣٤٦/١١ ط / ١٤١٨ه – مكتبة الخانجي بالقاهرة ، مجاني الأدب في حدائق العرب لابن يعقوب شيخو ٢٠٣/٦ ك / ١٩١٣م – مطبعة الآباء اليسوعيين ، الأبيات من بحر الطويل .

(٣) يتنبل : من تنبل إذا اتخذ النبل وهو : عظام المدر والحجارة . المصباح المنير ٥٩١/٢.

دَعَستُ[١]عَلى غَطشٍ[٢] وَبَغشٍ[٣]وَصُحبَتي ∴ سُعارٌ[٤] وَإِرزيزٌ[٥] وَوَجرٌ[٦] وَأَفكُلُ[٧]

فَأَيَّمتُ[٨] نِسواناً وَأَيتَمتُ آلَدَةً ∴ وَعُدتُ كَما أَبدَأتُ وَاللَيلُ أَلَيَلُ

فهو يصف ليلة مشئومة من لياليه السوداء التي خرج فيها مجهزًا بسهامه ورماحه ؛ ليفتك بنفوس الأبرياء من البشر على حين غفلة ، وقد وصف هذه الليلة الظلماء الممطرة وما تحمله فيها من شدة الخوف ، والجوع ، والبرد القارص ، ليمارس صعلكته على الآخرين .

وبعد ذلك يصف سفكه للدماء وقتله للأبرياء فيقول[٩]:

فَأَيَّمتُ نِسواناً وَأَيتَمتُ آلَدَةً ∴ وَعُدتُ كَما أَبدَأتُ وَاللَيلُ أَلَيَلُ

حيث قتل الأزواج والآباء فأرمل نساءهم ، ويتَّم أولادهم وعاد في قلب ظلام الليل ، بل عاد والليل أسود وأظلم من وقت خروجه للصعلكة ؛ حتى لا يدري به أحد .

---

(١) دعست : وطأت بشدة . جمهرة اللغة لابن دريد الأزدي تحقيق / رمزي بعلبكي ٦٤٤/٢ ط/ الأولى دار العلم – بيروت .

(٢) المراد بالغطش : الظلمة . تهذيب اللغة للأزهري ٤٠/٨ ط / الأولى – دار إحياء التراث العربي بيروت .

(٣) البغش : المطر . جمهرة اللغة ٣٤٤/١ .

(٤) السعار : شدة الجوع ولهيبه . ينظر : تهذيب اللغة ٥٣/٢ .

(٥) أرزيز : صوت البرد القارص . ينظر : معجم اللغة العربية المعاصرة للدكتور / أحمد مختار عبد الحميد ٨٨٤/٢ ط الأولى ١٤٢٩هـ .

(٦) وجر : أي خوف . ينظر : المخصص لابن سيده تحقيق / خليل جفال ٢٨٦/٤ ط / الأولى – دار إحياء التراث العربي .

(٧) الأفكل : الرعدة التي تعلو الإنسان . تهذيب اللغة ١٤٣/١٠ .

(٨) الأيم : المرأة العزباء التي لا زوج لها . ينظر : تهذيب اللغة ٤٤٦/١٥ .

(٩) خزانة الأدب للبغدادي ٣٤٦/١١ ، والبيت من بحر الطويل .

وهنا يتجاهر الشاعر بفسقه وقتله للأبرياء بغير حق دون أن يفكر في أطفالهم اليتامى ونسائهم المساكين اللائي أصبحن بسببه بلا عائل يعولهن؛ فأيُّ شجاعة في ذلك ؟ . ويقول الشنفري في داليته [١] :

فَطَعنَةُ خِلسٍ مِنكُمُ قَد تَركتُها ∴ تَمجُّ عَلى أَقطارِها سُمَّ أَسودِ

وقد أخبر عن صعلكته وفتكه الشديد بأعدائه حين يغدر بهم ويأخذهم على غرة فيطعنهم بسلاحه طعنة سامة تنزف سُمًا قاتلاً وكأنه سمُّ ثعبان أسود لعين .

أما أبو الطحان القيني فيتحدث في صعلكته عن طعناته التي تقطف الرؤوس وتزيلها عن الأعناق ، فيقول [٢] :

بِضَربٍ يُزيلُ الهامَ عَن سَكَناتِهِ ∴ وَطَعنٍ كَتَشهاقِ العفاهم[٣] بالنَّهقِ

وطعناته لها صوت مخيف كنهيق ولد الحمار حينما ينهق من شدة الجوع، وهذا هو شأن هؤلاء الصعاليك من قتل الأبرياء ، وإرهابهم ، وقذف الرعب في قلوبهم بغير حق .

وقد جاء في ديوان عروة بن الورد أنه كان في أرض بني القين[٤] عرى من الشجر العظام إذا أجدب الناس رعوها فعاشوا فيها، فأقام أصحاب عروة يومًا، ثم ورد عليهم فصيل فقالوا : دعنا فلنأخذه ، فنأكل منه يومًا أو يومين، فقال :

---

(١) ينظر : شرح ابن الأنباري على المفضليات ص ١٩٨ ط ١٩٢٠م – بيروت ، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ص ١٩٧ والبيت من بحر الطويل .

(٢) شرح أدب الكاتب لابن قتيبة تأليف أبي منصور الجواليقي ص ٢٩٠ تقديم مصطفى صادق الرافعي ط / بيروت والبيت من بحر الطويل .

(٣) العفا : ولد الحمار. مقاييس اللغة لابن فارس تحقيق / عبد السلام هارون ٥٩/٤ ط ١٣٩٩هـ – بيروت

(٤) بني القين : هم بنو النعمان بن جسر بن شيع الله بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحافي بن قضاعة ، من بطونهم جشم وثعلبة وفارج ، وتميم بن زيد كان لهم جمع عظيم في أكناف الشام . جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٥٤/١ ط / الأولى – دار الكتب العلمية – بيروت .

إنكم تنفرون أهله ، وإن بعده إبلاً ، فتركوه ثم ندموا على تركه ، وجعلوا يلومون عروة من الجوع الذي جهدهم ثم وردت إبل بعده بخمس فيها ظعينة أو امرأة ورجل معه السيف والرمح، فخرج إليه عروة فرماه في ظهره بسهم أخرجه من صدره ، فخر ميتًا ، واستاق عروة الإبل والمرأة حتى أتى قومه ، وقال لاميته الشهيرة والتي منها قوله[١] :

لَعَلَّ انطلاقي في البِلادِ وَبُغيَتي ∴ وَشَدّي حَيازيمَ المَطِيَّةِ بِالرَحلِ
سَيَدفَعُني يَوماً إِلى رَبِّ هَجمَةٍ ∴ يُدافِعُ عَنها بِالعُقوقِ وَبِالبُخلِ
قَليلٌ تَواليها وَطالِبُ وِترِها ∴ إِذا صحتُ فيها بِالفَوارِسِ وَالرَجلِ
إِذا ما هَبَطنا مَنهَلاً في مَخوفَةٍ ∴ بَعَثنا رَبيئاً [٢] في المَرابِئِ كَالجِذلِ[٣]
يُقَلِّبُ في الأَرضِ الفَضاءِ بِطَرفِهِ ∴ وَهُنَّ مُناخاتٌ وَمِرجَلُنا يَغلي

من خلال القصة السابقة يتضح أن عروة بن الورد زعيم الصعاليك قد رمى الرجل بسهم في ظهره ، وأخرجه من صدره فخرَّ ميتًا ، فيكون قد قتل نفسًا زكية بغير حق وهذه أول جريمة قد ارتكبها في هذه القصة .

وبعد ذلك استاق إبله واستولى عليها ، وهذه جريمة أخرى ، كما أخذ المرأة وذهب بها إلى شياطين قومه من الصعاليك ، وتلك جريمة ثالثة ، وسيأتي الحديث بعد ذلك عن سلب الأموال والأعراض .

ومن العجيب أنه بعد ذلك يفتخر بصعلكته، ويصف نفسه بالشهامة ، والشجاعة بعد أن غدر بالرجل فقتله واستاق إبله وامرأته ، فخرَّب بيته، وسفك دمه ، لا شك أنه منهج دنئ يدعو إلى الفساد في الأرض ، والظلم والعدوان على الأبرياء ، وهو يخالف منهج الشعراء الفرسان ذوي المروءة والأخلاق الرفيعة .

---

(١) ديوان عروة بن الورد ص ٥٣ : ٥٥ ، والأبيات من بحر الطويل .
(٢) الربئ : الرقيب وربأت القوم إذا كنت لهم طليعة . جمهرة اللغة لابن دريد ١٠٩٧/٢ .
(٣) الجذل : أصل الشجرة . جمهرة اللغة ٤٥٤/١ .

٣ ـ أكل أموال الناس بالباطل :

لا شك أن سلب أموال الناس وأكلها بالباطل هو الغرض المقصود ، من وراء الصعلكة ؛ هربًا من الفقر وطلبًا للغنى والثراء من أيسر الطرق ، وذلك بطريق الحرابة والتلصص ، وسرقة أموال الأبرياء ، واغتصابها ظلمًا، وعدوانًا.

وأموال الناس – بطبيعتها – عزيزة على أهلها ، ومن ثمَّ فلا يسهل التفريط فيها ولذا ترى الصعلوك مجهزًا بسيفه ، وسهمه ، وروحه ، ليقتل صاحب المال أولاً قبل أن ينقضَّ على ماله .

ومن هنا فأكل أموال الناس بالباطل لا يخلو قبله من القتل وإزهاق الأرواح فها هو السليك بن السلكة يخرج مع رفيقين له يريدون غارة في عشية كلها ضباب ومطر، حتى أتوا بيتًا قد انفرد من البيوت ، ويأبى السليك إلا أن يكون بطل هذه الغارة فيتقدم صاحباه حتى إذا خرج رب الإبل ليعشيها تبعه السليك ، فلما نام الشيخ وغطى وجهه بثوبه حانت الفرصة للسليك فاستله من ردائه فضربه فطير رأسه ، وسلب إبله وساقها حيث ينتظره صاحباه ثم أشار إلى هذه الواقعة في شعره ، فقال [١] :

وَعاشِيَةٍ[٢] راحَت بِطاناً ذَعَرتُها ∴ بِسَوطِ قَتيلٍ وَسطُها يَتَسَيَّفُ

كَأَنَّ عَلَيهِ لَونَ بُردٍ مُحَبَّرٍ ∴ إِذا ما أَتاهُ صارِمٌ يَتَلَهَّفُ

فَباتَ لَهُ أَهلٌ خَلاءٌ فِناؤُهُم ∴ وَمَرَّت بِهِم طَيرٌ فَلَم يَتَعَيَّفوا[٣]

---

(١) وفي بعض المصادر برواية « وعاشية زج بطان ذعرتها . ينظر : الفاخر للمفضل بن عاصم تحقيق / عبد العليم الطحاوي ١٦١/١ ط / الأولى ١٣٨٠هـ – دار إحياء الكتب العربية ، جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ٥٨/٢ ط / دار الفكر – بيروت – ، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي للدكتور / يوسف خليف ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، والأبيات من بحر الطويل .

(٢) المراد بالعاشية : الإبل التي ترعى وقت العشى . الصحاح للجوهري ٢٤٢٧/٦ ط الرابعة

(٣) من العيافة بمعنى : زجر الطير بأن يرى غرابًا فيتطير منه ، من عاف الشيء إذا كرهه ينظر : تهذيب اللغة ١٤٧/٣ .

وَبـــاتوا يَظُنُّـــونَ الظُنـــونَ وَصُـــحبَتي ∴ إِذا مـــا عَلَـــوا نَشـــزاً أَهَلّـــوا وَأَوجَفـــوا
وَمـــا نِلتُهـــا حَتّـــى تَصَـــعلَكتُ حِقبَـــةً ∴ وَكِـــدتُ لِأَســـبابِ المَنِيَّـــةِ أُعـــرِفُ
وَحَتّـى رَأَيـتُ الجُـوعَ بِالصَيفِ ضَـرَّني ∴ إِذا قُمـتُ تَغشـاني ظِـلالٌ فَأُسـدِفُ[1]

فقد اصطاد الإبل ، ونهبها بعد أن قتل صاحبها بسيفه الصـــارم ، ولطَّـــخ ثيابه بدمائه الحمراء ، وأخذ يهتف بفرحه وأصحابه اللصوص بهذه الليلة ومدى تفاؤلهم بها، كما وصف القلق والحيرة التي انتابت أهل القتيل بعد أن خـــلا فنـــاء بيتهم من الإبل المنهوبة وقد مرَّ بهم غراب أسود فلم يتطيروا منه حتى رأوا دماء قتيلهم فزاد خوفهم وحزنهم وعلموا بصدق ما جاء به الغراب الأسود .

وبعد ذلك أخذ يحدثنا عن صعلكته والمراحل التي مرَّ بها ، ومـــا واجهـــه فيها من مشكلات وكأنها مفخرة له بين العرب وهو يودُّ تدريسها للأجيـــال التـــي بعده؛ ليخلق لصوصًا وصعاليكًا محترفين في نهب أموال الناس وأكلها بالباطل.

وقد أثر شعر هؤلاء الصعاليك في من جاء بعدهم فحببوا الصـــعلكة إلـــى نفوس كثير من البشر على أنها لون من الشطارة والمهارة والشجاعة فصـــنعوا كثيرًا من الصعاليك على مرِّ الدهور والأعـــوام ، وإن كنـــت أرى أن الشـــجاعة والمهارة في الباطل لا قيمة لهما بل هما عين الجبن ، والبلادة، فـــأي شـــجاعة ومهارة في أن تقتل رجلاً وتسلب ماله وإبله دون أن يسبقك بأذى فـــي نفســـك، أو مالك أو أهلك ؟

وقد جاء في ديوان عروة بن الورد أنه سمع عن رجل من بني كنانة بـــن خزيمة أنه من أبخل الناس وأكثرهم مالاً ، فبثَّ عليه عيونًا ، فأتوه بخبـــره، أي بخبر قتله فساق إبله ونهبها ثم قسمها في قومه وقال[2] :

---

(١) أسدف : أي أظلم بصره من شدة الجوع ، والسدف : الظلمة . جمهرة اللغة لابـــن دريـــد ٦٤٥/٢ .

(٢) ينظر : ديوان عروة بن الورد ص ٢٧ ط / دار صادر – بيروت ، والأبيـــات مـــن بحـــر الكامل .

مـــا بِـــالثَّراءِ يَســـودُ كُـــلُّ مُسَـــوَّدٍ ∴ مُثْـــرٍ وَلَكِـــن بِالفِعَـــالِ يَســـودُ
بَـــل لا أُكـــاثِرُ صـــاحِبي في يُســـرِهِ ∴ وَأَصُـــدُّ إِذ في عَيشِـــهِ تَصـــريدُ[1]
فَـــإِذا غَنيـــتُ فَـــإِنَّ جـــارِيَ نَيلُـــهُ ∴ مِـــن نـــائِلي وَمَيَسَّـــري مَعهـــودُ
وَإِذا اِفتَقَـــرتُ فَلَـــن أَرى مُتَخَشِّـــعاً ∴ لِـــأَخي غِنـــىً مَعروفُـــهُ مَكـــدودُ

فهو لا يجعل التفاضل بين الناس بالغنى وكثرة المال، بل بالجود والسخاء وحسن الأخلاق ، والمروءة ، ومنْ ثمَّ فهو لا يتخلى عن أصحابه الصعاليك الذين يتجرَّعون الفقر ، بل يجود عليهم ويعطيهم من سرقاته التي نهبها من أموال الأغنياء حتى يقلب عسرهم يسرًا .

وفي بيته الأخير يعرِّض بالرجل الذي قتله وسرق إبله فيقول[2] :

وَإِذا اِفتَقَرتُ فَلَن أَرى مُتَخَشِّعاً ∴ لِأَخي غِنىً مَعروفُهُ مَكدودُ

أي : إذا صار فقيرًا محتاجًا فلن ينحني لغني بخيل ينتظر معروفه الذي يخرج منه مقتَّرًا ؛ لشدة بخله ، فهو يقي نفسه ذلَّ السؤال عند الحاجة ، كما أن هذا الغني لن يعطيه عطاءً يغنيه ، بل سيعطف عليه – كالعادة – بدراهم يسيرة وهو لا يريد ذلك، بل يريد الغنى والثراء، ولذا وصفه عروة بالبخل وربما كان هذا الرجل من أجود الناس وأحسنهم أخلاقًا ، ووصف نفسه بالجود والسخاء في عطائه لإخوانه الصعاليك وشتان بين عطاء كل منهما ، فعطاء عروة لا قيمة له وإن كان كثيرًا؛ لأنه لا يعطي أحدًا من ماله، بل من أموال سرقها ونهبها، وقتل صاحبيها ، فهي ليست من كسبه الحلال، بخلاف عطاء الرجل الغني الذي قتله فمعروفه – وإن كان يسيرًا – إلا أنه له قيمة عند الله والناس ، فكما قال الشاعر[3] :

مَن يَفعَلِ الخَيرَ لا يَعدَم جَوازِيَهُ ∴ لا يَذهَبُ العُرفُ بَينَ اللَهِ وَالناسِ

---

(١) تصريد : تقطيع ، وصرَّد شُرْبه أي : قطعه . تهذيب اللغة ١٢/ ٩٨ .
(٢) ديوان عروة بن الورد ص ٢٧ بحر الكامل .
(٣) ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت تقديم : د / حنا نصر ص ٢٧٢ ط الأولى ط ١٤١٥هـ – دار الكتاب العربي ، والبيت من بحر البسيط .

وإذا كان عروة يتحدث عن الأخلاق وحسن الفعال ، فهي ليست مقصورة على كرمه المزيف ، وسخائه الباطل ، فأي عرف إنساني ، أو شرع سماوي يقضي بأن يكون قتل النفس بغير حق ونهب أموالها من حسن الفعال؟.

لا شك أن العفة عن الحرام من أجلِّ الأخلاق ، وحسن الفعال ، وحرمة النفس، والمال، والعرض قد حرمتها تقاليد الفطرة الإنسانية ، وحرمها المجتمع الجاهلي قبل أن يحرِّمهَا الإسلام .

وقد خرج هؤلاء الصعاليك على تقاليد الفطرة الإنسانية وكأنهم ليسوا من بني الإنسان ، فهم يظنون أن المجتمع الإنساني كعالم الأسماك ، والوحوش يأكل فيه القوي الضعيف ؛ وقد عبر عن ذلك بكر بن النطاح ، فقال[١] :

وَمَن يَفتَقِر مِنّا يَعِش بِحُسامِهِ ∴ وَمَن يَفتَقِر مِن سائِرِ الناسِ يَسأَلِ

فهو يرى أن الفقر دافع قوي لاستحلال مال الغير واغتصابه ولو بسيفه الحادِّ القاطع . ويقول الأحيمر السعدي[٢] :

وَإِنّي لَأَستَحيي مِنَ اللَهِ أَن أُرى ∴ أُمِرُّ بِجبلٍ لَيسَ فيهِ بَعيرُ

وَأَن أَسأَلَ المَرءَ اللَئيمَ بَعيرَهُ ∴ وَبِعرانُ رَبّي في البِلادِ كَثيرُ

فهو يستحيي من أن يرى نفسه فقيرًا يمرُّ بجبل ليس فيه بعير يسرقه، كما يستحيي أن يسأل عبدًا لئيمًا بعيره ، فلا يعطه إياه ، والحال أن هذا البعير وغيره كثير هو ملك لله – تعالى – فيا سبحان الله العظيم !!.

لا شك أن الله – تعالى – هو المالك الحقيقي لكل شيء ، وقد ملك بعض خلقه أشياء وأمرك أيها الصعلوك أن تحترم هذه الملكية فلا تجور عليها، ولا تأخذ منها شيئًا إلا بحقهِ ، فإذا عرفت ربك فالزم ذلك ، كيف لا ، وقد حباك الله – تعالى – بالعقل الذي يميز مالك عن مال غيرك؟

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب ١٠٣٧/٤ ، المستطرف في كل فن مستظرف لأبي الفتح الأبشيهي ٢٣٢/١ والبيت من بحر الطويل .

(٢) الشعر والشعراء ٧٧٤/٢ ، ٧٧٥ ، والبيتان من بحر الطويل .

وقد احترم العقل قبل الشرع ملكية الآخرين ، فترى من الكافرين بـــالله – تعالى – من يحترم أموال الآخرين فلا يأكلها بالباطل مهتديًا إلى ذلك بعقله وتقاليد فطرته النقية ، فكيف بمن آمن بربه؟

ومن هنا يتضح لنا الخطأ الجسيم ، والجرم العظيم الذي وقع فيه هـــؤلاء الشعراء الصعاليك من سلبهم واغتصابهم لأموال الناس وأكلها بالباطل .

٤ ـ سلب الأعراض والتعدِّي عليها :

لم يقتصر شعر الصعاليك على سلب أموال الناس وأكلها بالباطـــل ، بـــل تجاوز ذلك إلى ما هو أشنع وأقبح، ألا وهو : سلب أعـــراض النـــاس والتعـــدِّي عليها، وعدِّها ضمن غنائمهم .

فها هو حنظلة بن الشرقي المكنى بأبي الطمحان القيني يصـــفه الجـــاحظ وابن قتيبة وغيرهما بالفسق فيقولون عنه : هو حنظلة بن الشرقي وكان فاسقًا ، وقيل له : ما أدنى ذنوبك؟ قال : ليلة الدير ، قيل له : وما ليلة الدير؟ قال : نزلت بديرانية فأكلت عندها طفشيلاً أي : مرقًا بلحم خنزير ، وشربت مـــن خمرهـــا ، وزنيت بها ، وسرقت كساءها ومضيت ثم أخذ ينشد ناقته التي يقال لها المرقال ، ويقول :

أَلا حَنَتِ المِرقـالُ وائتب[1] رَبُّهـا ∴ تَـذَكّر أرمَامهَـا[2] وَأَذكُـرُ مَعشَـري
وَلَـو عَرَفت صَرف البُيـوعِ لَسَـرَّها ∴ بِمَكَّـةَ أَن تَبتـاعَ حَمضـاً بِـإِذخِرِ

(١) وائتب : تهيأ للمفارقة . لسان العرب لابن منظور ٢٠٥/١ .
(٢) أرمام : اسم جبل في ديار باهلة بن أعصر ، وقيل واد في ديار بني أسد . معجم البلـــدان للحموي ١٥٤/١ ط / الثانية دار صادر .

وكان نازلاً بمكة على الزبير بن عبد المطلب ، وكان ينزل عليه الخلعاء وإنما أراد أنها لو عرفت لسرَّها أن تنتقل من بلاد الإذخر إلى بلاد الحمض وهي البادية ، وقد وردت هذه القصة في كثير من المصادر والمجامع الأدبية[١] .

بالله قل لي : رجل يزني، ويسرق، ويشرب الخمر، فأين أخلاقه ومروءته ؟

ومن العجيب أن الدكتور / عبد الحليم حفني قد رأى أن أبا الطمحان القيني قد شذ عن غيره من إخوانه الصعاليك في سوء خلقه منوهًا إلى هذه القصة، فقال : « من خلال أخبار أبي الطمحان نلاحظ عليه إسفافه وتنزله إلى أعمال ينفر منها خلق الصعاليك ، فالصعاليك على أن حياتهم كانت تعتمد على السلب والنهب، والتلصص إلا أنهم كانوا يتعففون دائمًا عما ينافي المروءة ، والخلق الكريم ، ولكن أبا الطمحان لم يتعفف عن ذلك ، ومن هذا قصته مع المرأة التي آوته وأكرمته، فسطا على شرفها، ومالها ثم هرب ، وأكثر من ذلك أنه كان يفخر بهذه القصة ، وهي المعروفة بقصة الدير» [٢] .

والحق أنني مع تقديري للدكتور / عبد الحليم حفني – غير أني أراه قد ناقض نفسه في نصه السابق لا سيما في قوله : « فالصعاليك على أن حياتهم

---

(١) وردت القصة في : المحاسن والأضداد للجاحظ ص ١٦٩ ط / ١٤٢٣ه – دار الهلال بيروت ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٧٦/١ ط / ١٤٢٣هـ – دار الحديث – القاهرة ، عيون الأخبار لابن قتيبة ١٠٥/٤ ط/ ١٤١٨هـ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، العقد الفريد لابن عبد ربه ٤١/٧ ط / الأولى ١٤٠٤ه – دار الكتب العلمية – بيروت ، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهاني ٤٣٨/٢ ط / الأولى ١٤٢٠هـ ، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي ٩٤/٨ تحقيق / عبد السلام هارون ط / الرابعة ١٤١٨هـ – مكتبة الخانجي بالقاهرة ، أخبار النساء لابن الجوزي ص ١٧٥ تحقيق د/ نزار رضا ط / ١٩٨٢م – مكتبة الحياة – بيروت ، والبيتان من بحر الطويل.

(٢) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه للدكتور / عبد الحليم حفني ص ١٢٥ .

كانت تعتمد على السلب والنهب ، والتلصص ؛ إلا أنهم كانوا يتعففون دائمًا عما ينافي المروءة » أليس السلب والنهب والتلصص مما ينافي المروءة؟

ما معنى المروءة ؟ المروءة : هي آداب نفسية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق ، وجميل العادات[١] .

فأيٌّ محاسن الأخلاق ، أو جميل العادات في السلب والنهب والتلصص؟

لا شك أنها مما ينافي المروءة ، وقد صدق المبرد في قوله على لسان الصعاليك : «نحن الصعاليك لا طاقة لنا على المروءة »[٢] .

ولم يقتصر الأمر على أبي الطمحان القيني فقط، فقد وجدت في ديوان عروة بن الورد العبسي أيضًا ما يدل على التعدِّي على أعراض النساء ، فقد جاء في ديوانه أن بني عامر قد أخذوا امرأة من بني عبس يقال لها : أسماء، فما لبثت عندهم إلا يومًا حتى استنقذها قومها، فبلغ عروة أن عامر بن الطفيل قد افتخر بذلك ، وذكر أخذه إياها ، فقال عروة يعيرهم بأخذه ليلى بنت شعواء الهلالية[٣] :

إن تَأخُذوا أَسماءَ مَوقِفَ ساعَةٍ ∴ فَمَأخَذُ لَيلى وَهيَ عَذراءُ أَعجَبُ

لَبِسنا زَماناً حُسنَها وَشَبابَها ∴ وَرُدَّت إِلى شَعواءِ وَالرَأسُ أَشيَبُ

كَمَأخَذِنا حَسناءَ كُرهاً وَدَمعُها ∴ غَداةُ اللِوى مَغصوبَةً يَتَصَبَّبُ

فهو يعيرهم بسلبه ليلى الهلالية وهي عذراء ، ليكون ذلك أغيظ لهم ، ثم يزداد في غيظهم فيقول : إنه قد تمتع بحسنها وشبابها ولم يردَّها إليهم إلا بعد أن شاب رأسها ولم يكن له رغبة في حُبِّها ، وقد أخذ هذه المرأة الحسناء غصبًا وكرهًا رغم أنفها ودمعها ينحدر من عينيها فهل هذا يليق بأخلاق شعراء العرب وفرسانهم ؟

---

(١) المصباح المنير للفيومي ٥٦٩/٢ ط / المكتبة العلمية – بيروت – لبنان .

(٢) الكامل للمبرد تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ٣٠٨/١ .

(٣) ديوان عروة بن الورد ص ١٨ ، والأبيات من بحر الطويل .

لا شك أن هذا لا يليق بأخلاق شعراء فرسان العرب، بل ولا يتصور إلا من صعاليكهم، فها هو ذا فارس العرب عنترة بن شداد العبسي يحدِّثنا عن عفته وأخلاقه العربية الأصيلة ، فيقول [١] :

وَأَغَضُّ طَرفي ما بَدَت لي جارَتي ∴ حَتّى يُواري جارَتي مَأواها
إِنّي امرُؤٌ سَمحُ الخَليقَةِ ماجِدٌ ∴ لا أُتبِعُ النَفسَ اللَجوجَ هَواها

فأين أخلاق زعيم الصعاليك عروة بن الورد من أخلاق ابن عمه فارس العرب عنترة بن شداد وهو ابن أمة سوداء؟ لكن أصالة العرب تسري في عروق دمه.

ومن العجيب أنك ترى الغرور قد استفحل في عقول هؤلاء الصعاليك مع خستهم وقبح أخلاقهم ؛ حتى انخدعوا في أنفسهم فظنوا أنهم لا مثيل لهم في شهامتهم ، وحسن عشرتهم ، فقد ذكر ابن الأعرابي أن عروة بن الورد بعد أن أخذ ليلى الهلالية واستولى عليها من قومها مكثت عنده زمنًا وهي مُعجبة له ، تريه أنها تحبه، ثم استزارته أهلها فحملها حتى أتاهم بها، فلما أراد الرجوع أبت أن ترجع معه، وتوعده قومها بالقتل ، فانصرف عنهم ، وقال لها : يا ليلى أخبري صواحبك عني كيف أنا؟

فقالت : ما أرى لك عقلاً ، أتراني قد اخترت عليك وتقول : خبري عني؟

فقال عروة بن الورد[٢] :

تَحِنُّ إِلى سَلمى بِحُرِّ بِلادِها ∴ وَأَنتَ عَلَيها بِالمَلا كُنتَ أَقدَرا
تَبَغّانِيَ الأَعداءُ إِمّا إِلى دَمٍ ∴ وَإِمّا عُراضِ الساعِدَينِ مُصَدَّرا
وَما أَنسَ مَ الأَشياءَ لا أَنسَ قَولَها ∴ لِجارَتِها ما إِن يَعيشُ بِأَحوَرا[٣]

---

(١) أشعار عنترة العبسي تقديم وشرح / محمد عبد المنعم خفاجى ط/ الأولى ١٣٨٨هـ – مكتبة القاهرة ، ص ٨٦، والبيتان من بحر الكامل .

(٢) ديوان عروة بن الورد ص ٣٣ والأبيات من بحر الطويل .

(٣) المراد بالأحور : العقل . تذهيب اللغة ١٥١/٥ .

لَعَلَّكِ يَوماً أَن تُسِرّي نَدامَةً ∴ عَلَيَّ بِما جَشَّمتِني يَومَ غَضوَرا[1]
فَقُرِّبتِ إِن لَم تُخبِريهُم فَلا أَرى ∴ لِيَ اليَومَ أَدنى مِنكِ عِلماً وَأَخبَرا
فَعيدَكِ عَمرَ اللَهِ هَل تَعلَمِينَني ∴ كَريماً إِذا اِسوَدَّ الأَنامِلُ أَزهَرا
صَبوراً عَلى رُزءِ المَوالي وَحافِظاً ∴ لِعِرضِيَ حَتّى يُؤكَلَ النَبتُ أَخضَرا
أَقَبُّ[2] وَمِخماصُ الشِتاءِ مُرَزَّأٌ ∴ إِذا اِغبَرَّ أَولادُ الأَذِلَّةِ أَسفَرا

كنى الشاعر عن ليلى بسلمى ، فهو يحنُّ إليها بعد أن تركته وأُكرمت بالإقامة في بلادها الكريمة وسط قومها بعد أن استولى عليها وملكها بصحراء شاسعة لا شجر فيها وقد أصبح لا حيلة لها في إرجاعها، وقد تمنى قومها أن ينتقم الله – تعالى – منه، فيقتله أعداؤه ، أو أن تأكله السباع والأسود ؛ مما يدل على كراهيتهم له لفحشه وسوء أخلاقه، ثم يتذكر قولها عنه فيه : إنه لا عقل له، ويرجو أن تندم على هذا القول لما تحمله معها من صعاب؛ ومنْ ثمَّ فهو يدعو عليها إن لم تخبر قومها بذلك فيدعو عليها بمرارة الغربة .

وبعد ذلك يقسم لها بالله – تعالى – أن تحدثه عن سخائه وكرمه لاسيما وقت الشتاء حيث يشتد البرد ويغشى الناس النيران فتسود أناملهم من الوقد، كما أنه صبور على هم الموالي ومسئولياتهم ، يصون عرضه من الذم، فإذا جاء القحط لم يزل يقري ويضيف حتى يعود الخصب ويورق الشجر ، فيطوي بطنه من شدة الجوع مؤثرًا أضيافه على نفسه .

وفي النهاية أفضل ما أعقب به على كلامه هو ما قالته فيه ليلى الهلالية حينما قال لها : خبِّري صواحبك عني كيف أنا؟ فقالت : ما أرى لك عقلاً [3] .

---

(١) غضورا : ماء لطيء . الجبال والأمكنة والمياه لجار الله الزمخشري تحقيق د/ أحمد عبد التواب ٢٥٠/١ ط / ١٣١٩هـ – دار الفضيلة – القاهرة .

(٢) أقب : أي ضامر . تهذيب اللغة ٩٠/٥ .

(٣) ينظر : القصة في ديوان عروة بن الورد ص ٣٣ .

فهو يسرق أموال الناس وأعراضهم ويظن بغروره أنه كريم الأخلاق، فيا لسفاهته ! وهل ينفع السخاء بمال الغير؟ كلا والله .

ولو بقي في عروة من الأخلاق شيء لخيَّر ليلى الهلالية بين أن ترجع إلى قومها ، أو تعيش معه برغبتها ، لكنها ظلت حبيسة أسره حتى خدعته بزيارة أهلها وأبت أن ترجع إليه، وتوعَّده قومها بالقتل .

٥ ـ الخمريات :

لا شك أن الخمرة هي أم الخبائث ، وهي باب الفسوق والعصيان ؛ لأنها تغيب عقل شاربها ، فيرتكب بعدها ما شاء من الجرائم ، والآثام ، ولا عجب فقد ذكرت قبل ذلك قصة أبي الطمحان القيني مع صاحبة الدير التي شرب معها الخمر ثم زنى بها ، وسرقها ، وفر هاربًا [١] .

والحنين إلى الخمر من نزغات الشياطين ، ولا عجب في ذلك أيضًا، فقد جعلها القرآن الكريم رجسًا من عمل الشيطان ، وأمرنا باجتنابه ، فقال – تعالى–: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢].

وقلما يأتي ذكر الخمر في شعر الصعاليك ؛ لشدة حياتهم المقلقة، وكثرة عدوانهم ، فهم يحاربون مجتمعًا بأسره؛ ومنْ ثمَّ فحياتهم لا تتسع للهو والترف، ومع ذلك فلم يخل شعر الصعاليك من ذكر الخمر.

يقول عروة [٣] :

سَقَوني النَسءَ[٤] ثُمَّ تَكَنَّفوني ∴ عُداةُ اللَهِ مِن كَذِبٍ وَزورِ

وَقالوا لَستَ بَعدَ فِداءِ سَلمى ∴ بِمُغنٍ ما لَديكَ وَلا فَقيرِ

---

(١) ينظر : البحث ص

(٢) آية رقم (٩٠) من سورة : المائدة .

(٣) ديوان عروة بن الورد ص ٣٢ والأبيات من بحر الوافر .

(٤) النسء : الشراب الذي يزيل العقل . المحكم لابن سيده ٨/٥٥٠ تحقيق / عبد الحميد هنداوي ط / الأولى ١٤٢١هـ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

أَلا وَأَبيكَ لَكَ اليَومَ أَمري ∴ وَمَن لَكَ بِالتَدَبُّرِ في الأُمورِ
إِذاً لَمَلَكتُ عِصمَةَ أُمِّ وَهبٍ ∴ عَلى ما كانَ مِن حَسَكِ[1] الصُدورِ

جاء في ديوان عروة أن هذه الأبيات قد أتت في سياق قصة عروة بن الورد مع امرأة من بني كنانة يقال لها : سلمى ، وتكنى بأم وهب قد أصابها عروة في بعض غاراته فأعتقها واتخذها لنفسه ، وكان يظن أنها أرغب الناس فيه ، فقالت له : لو حججت بي ، فأمر على أهلي وأراهم ، فحج بها ومر على أهلها ، فسقوه الشراب حتى ثمل فقالوا له : فادنا بصاحبتنا ، فقال لهم : خيروها بيني وبينكم ، فخيروها ، فاختارت أهلها ، فقال عروة رائيته التي منها الأبيات السابقة [2] .

ومن هنا يتضح أن فداء عروة بن الورد لمحبوبته سلمى كان تحت سيطرة شراب الخمر الذي سقوه إياه ، فأذهب عقله؛ حتى احتالوا عليه في فدائها فنسى حبه لها تحت سيطرة الخمر ، فلو عاد أمرها إلى يده مرة أخرى لما فارقها مهما بلغ من كراهية قومها له ، مع شدة عدائهم وحقدهم وغلِّهم عليه فهو لا يخشاهم أبدًا .

ويفهم من هذه الأبيات أنه يلعن الخمر التي أنسته حبها ؛ حتى تركها لقومها بسهولة ولذا فقد كنى عن شراب الخمر بالنسء .

وقد ورد ذكر الخمر ووصف شرابها بطريقة أعمق عند شاعر الصعاليك المخضرم عبدة بن الطبيب ، فقال[3] :

---

(١) الحسك : من الحساكة بمعنى : الحقد والعداوة . المعجم الوسيط ٧٣/١ ط / دار الدعوة مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

(٢) القصة في ديوان عروة ص ٣٠ وما بعدها .

(٣) ينظر : المفضليات تحقيق وشرح / أحمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون ص ١٤٣ ، ١٤٤ ط/ السادسة – دار المعارف – القاهرة ، والأبيات من بحر البسيط .

وَقَـد غَـدَوتُ وَقَـرنُ الشَمسِ[١] مُنفَتِـقٌ ∴ وَدونَـهُ مِـن سَـوادِ اللَيـلِ تَجليـلُ
إلى التِجـارِ فَأَعـدانـي بِلذَّتِـهِ ∴ رِخـوُ الإزارِ كَصَـدرِ السَـيفِ مَشـمولُ
خِـرقٌ يَجِـدُّ إذا مـا الأَمـرُ جَـدَّ بِـهِ ∴ مُخـالِطُ اللَهـوِ وَاللَـذّاتِ ضِـلّيلُ
حَتّـى اِتَّكَأنـا عَلـى فُـرشٍ يُزَيِّنُهـا ∴ مِـن جَيِّـدِ الـرَقمِ أَزواجٌ تَهاويـلُ
فيهـا الـدَجاجُ وَفيهـا الأُسـدُ مُخـدِرَةً ∴ مِـن كُـلِّ شَـيءٍ يُـرى فيهـا تَماثيـلُ
ثُـمَّ اصطحبت كُمَيتـاً[٢] قَرقَفـاً[٣] أُنُفـاً ∴ مِـن طَيِّـبِ الـراحِ[٤] وَاللَـذّاتُ تَعليـلُ
صِـرفاً مِزاجـاً وَأَحيانـاً يُعَلِّلُنـا ∴ شِـعرٌ كَمُذهَبَـةِ السَـمّانِ[٥] مَحمـولُ

فقد غدا مسرعًا في أول النهار إلى الخمارين ، ليستمتع بشـراب الخمـر فعاد منتعشًا بلذة شرابها اللين البارد كشعاع الشمس في أول طلوعها ، ثم عـاد في آخر البيتين ؛ ليصف هذا الشراب فهو أحمر اللون يرعد صاحبه مـن شـدة بريقه وصفائه ؛ لأنه أول من اغترف من هذا الشراب النقي الصافي والممـزوج بالروائح الجميلة العطرية ؛ ومن ثم فقد استمتع بوجه هذا الشراب وطبقته الأولى اللامعة قبل أن ينال منه أحد قبله.

(١) وقرن الشمس : أول شعاعها . جمهرة اللغة لابن دريد ٨٩/١ ط / الأولـى – دار العلـم للملايين – بيروت ، معجم ديوان العرب للفارابي تحقيق د / أحمد مختار عمـر ١٣٣/١ط ١٤٢٤هـ – مؤسسة دار الشعب – القاهرة .
(٢) الكميت :من أسماء الخمر لشدة حمرتها . المخصص لابن سيده ١٩٥/٣ تحقيق / خليـل جفال ط / الأولى ١٤١٧هـ – دار إحياء التراث العربي – بيروت .
(٣) سميت الخمر قرقفًا ؛ لأنها تترقف أي : ترعد . معجم ديوان العرب ٤٨٣/٢ .
(٤) الراح : الخمر . مقاييس اللغة لابن فارس ٤٥٧/٢ تحقيق / عبد السلام هـارون – ط / ١٣٩٩هـ – دار الفكر .
(٥) السمان : الطوال . تهذيب اللغة ٢٤٠/١٥ .

ويبدو أنه في آخر الأبيات يشير إلى ساقي الخمر بجماله المدهش ، وشعره الناعم الطويل المائل على وجهه بطريقة بهية تخطف قلوب الناظرين إليه وتتعب عقولهم من شدة الحب .

ولا شك أن هذه الصورة غريبة جدًا على شعر الصعاليك الذين لم تتسع حياتهم للهو وترف الخمريات ، والعبث بالغلمان .

٦ ـ الهجاء والسخرية:

لا شك أن الهجاء من أقبح أنواع الشعر ؛ لأنه مبني على ظلم المهجو وإلحاق العيب به، وقد ذكر ابن قتيبة أن العجاج قد سئل فقيل له: إنك لا تحسن الهجاء ، فقال : إن لنا أحلامًا تمنعنا من أن نظلم ، وأحسابًا تمنعنا من أن نظلم [(١)] .

وكانت عائشة – رحمها الله تعالى – تفسر قول رسول الله (ﷺ) : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا حتى يريه (من الورى) خير له من أن يمتلئ شعرًا قالت : يعني الهجاء منه »[(٢)] .

ومن هنا كان الهجاء من نزغات الشيطان الرجيم؛ لأنه يثير الغضب ، ويقطع العلاقات ، ويورث الحقد والبغضاء بين الناس.

وقد اشتهر من بين الصعاليك بشعر الهجاء الشاعر المخضرم فضالة بن شريك الأسدي الذي كان يهجو الأمراء وسادة العرب ؛ مما يدل على حقده عليهم وبغضه لهم كما في قصة هجائه لابن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/٢٠٠ ط / ١٤١٨هـ – دار الكتب العلمية – بيروت .
(٢) الفاضل لأبي العباس المبرد ص ١٣ ط / الثالثة ١٤٢١هـ دار الكتب المصرية – القاهرة .

فوصفه بشدة البخل ، يقول فضالة بن شريك الأسدي في هجاء عاصم ابن عمر بن الخطاب [١] :

أَلا أَيهَا الباغى الْقرى لست واجدا ∴ قراك إذا مَا بتّ فى دَار عَاصِم
إِذا جِئْته تبغى الْقرى بَات نَائِما ∴ بطينا وَأمسى ضَيفه غير نَائِم
وَلَوْلَا يَد الْفَارُوق قلدّت عَاصِمًا ∴ مطوّقة يجدى بهَا فى المواسم

فهو ينادي كل ضيف دعته الحاجة إلى النزول في دار عاصم بن عمر ابن الخطاب ؛ بغية كرمه وجوده ، فهو ينبهه إلى أنه لن يجد كرمًا ولا جودًا في دار عاصم بن عمر بن الخطاب ؛ لأنه لا ينشغل إلا براحة نفسه، فإذا جئته تراه نائمًا ممتلئ البطن وإن بات ضيفه قلقًا مهمومًا من شدة الجوع والسهر ، ولا شك أن هذه الصفات مما ينفر منها العرب .

وفي النهاية يتذكر الشاعر يد الفاروق البيضاء على الإسلام والمسلمين ، وما لها من عدل وكرم ، وإنفاق على الأرامل والمساكين، فيقول : لولا يد أبيه السخية لطوقت عنقه بقلادة البخل؛ ليعرف بها في مواسم العرب وأسواقهم .

وهذا كلام فيه تزييف للحقائق ؛ لأن عاصم بن عمر بن الخطاب شريف قرشي تربى في بيت العدل والسخاء والكرم في قلب الخلافة الإسلامية ، فكيف يوصف بهذا البخل المذموم ؟

ولم يقتصر فضالة بن شريك على هجاء عاصم بن عمر ، بل هجا أيضًا عبد الله بن الزبير ، فقال[٢] :

أقول لغلمتِي شدُّوا رِكابي ∴ أُفارِقُ بَطنَ مكَّةَ في سَوادِ

---

(١) الحماسة البصرية لصدر الدين أبي الحسن البصري تحقيق / مختار الدين أحمد ٢٩٩/٢ ط/ عالم الكتب – بيروت ، والأبيات من بحر الطويل .

(٢) الحماسة البصرية لأبي الحسن البصري تحقيق / مختار الدين أحمد ٣٠٠/٢ ، ٣٠١ ط / عالم الكتب – بيروت ، والأبيات من بحر الوافر .

فَمـــالي حـــينَ أَقطَـــعُ ذاتِ عِـــرقٍ ∴ إلى ابـــنِ الكاهليـــةِ[١] مـــن مَعـــادِ
ســـيبعد بيننـــا نـــصُّ المطايـــا ∴ وتعليـــــق الأداوي والمـــــزاد
أَرى الحاجـــاتِ عنـــد أَبـــي خُبَيـــبٍ ∴ نَكِـــدنَ وَلا أُمَيَّـــةَ في الـــبِلادِ
شـــكوت إليـــه أن نقبـــت قلوصـــي[٢] ∴ فـــرد جـــواب مشـــدود الصـــفاد[٣]
لقـــد أسمعـــت لـــو ناديـــت حيًّـــا ∴ ولكـــن لا حيـــاة لمـــن تنـــادي

فهو يأمر غلمانه بأن يجهزوا له رحله؛ ليفارق مكة في سواد الليل متجهًا إلى عبد الله بن الزبير؛ ليقضي له حاجة عنده وإن كان يرى أنه لن يفي بمعـاده مع بعد المسافة التي سيسافرها إليه وحمله للزاد والماء .

وعبد الله بن الزبير هو الذي تزعم للحزب الزبيري فـي أيـام الأحـزاب السياسية ، وانتشارها في العصر الأموي ، ويبدو أن فضالة قد اتجه إليه ليعطيه ما يحتاج إليه من المال ليسد فقره بطريق الود والشفقة لا بطريق الفتك والصعلكة فلم يستجب له ابن الزبير ؛ ولذا فهو يرى أن الحاجة إليه أو إلى بني أمية ستفتح عليه باب الشر والنكد .

وقد شكى إليه ضعفه وضموره من شدة الجوع فرد عليه وأجابه بجـواب المقيد المغلول عن العطاء فلا يستطيع إطعام أحد؛ كناية عن شـدة بخلـه وقلـة مروءته .

وفي النهاية يبدي الشاعر ندمه على سؤاله إياه؛ لعدم إجابته فكأنه مـن الأموات لا يسمع أحدًا ولو كان من الأحياء لسمع له وجاد عليه بعطائه؛ مما يدل

---

(١) نسبة إلى الكاهل وهو مقدم الظهر مما يلي العنق ، ويطلق على الضعيف المسن . ينظر : تهذيب اللغة ١٥/٦ ط / ٢٠٠١م – دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(٢) القلوص : الشابة القوية على السير من النوق . ينظر : مجمل اللغة لابن فارس تحقيق / زهير سلطان ٧٣١/١ ط / الثانية ١٤٠٦هـ – مؤسسة الرسالة – بيروت .

(٣) الصَّفاد : حبل يوثق به أو غلٌّ . المحكم لابن سيده تحقيق / عبد الحميد هنداوي ٢٩٢/٨ ط/ الأولى ١٤٢١هـ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

على شدة بخله، وربما ضَنَّ عليه بعدم العطاء ؛ لعلمه بصعلكته وفتكه، وأكله أموال الناس بالباطل مع كبريائه واستطالة لسانه كإخوانه من الشعراء الصعاليك.

وترى لونًا من الهجاء في شعر عروة بن الورد يهجو فيه الصعلوك الفقير الذي يرضى بالقليل من المال الذي يكسبه بطريق مشروع ، فيقول[١] :

لَحى اللَهُ صُعلوكاً إذا جَنَّ لَيلُهُ ∴ مُصافي المُشاشِ[٢] آلِفاً كُلَّ مَجزَرِ
يَعُدُّ الغِنى مِن نَفسِهِ كُلَّ لَيلَةٍ ∴ أَصابَ قِراها مِن صَديقٍ مُيَسَّرِ
يَنامُ عِشاءً ثُمَّ يُصبِحُ ناعِساً ∴ يَحُتُّ الحَصى عَن جَنبِهِ المُتَعَفِّرِ
قَليلُ التِماسِ الزادِ إِلّا لِنَفسِهِ ∴ إِذا هُوَ أَمسى كَالعَرِيشِ المُجَوَّرِ[٣]
يُعينُ نِساءَ الحَيِّ ما يَستَعِنُّهُ ∴ وَيُمسي طَليحاً كَالبَعيرِ المُحَسَّرِ[٤]

من الواضح أن الأبيات تحمل روح الهجاء والسخرية ، فهو يسخر من الصعلوك الفقير الذي يرضى بفقره وجوعه فيحرم نفسه من اللحوم الشهية ويأكل العظام الليِّنة التي لا ثمن لها ، ويفرح إذا استضافه أحد الأغنياء ولو بقليل الطعام، فينام من أول الليل ليكمل عشاءه نومًا ، ولا فراش له في نومه، بل ينام على التراب والحصى ثم يصبح ينفضهما عن جنبه المتعفِّر بهما.

وبعد ذلك يصفه بأنه لا يفكر في مستقبل أولاده من بعده ، بل يكتفي بالطعام اليسير الذي يسدُّ جوعه ، فإذا أمسى خر نائمًا كالخيمة الساقطة على الأرض ، وذلك من شدة تعبه .

---

(١) ديوان عروة بن الورد ص ٣٧ ، والأبيات من بحر الطويل .
(٢) المشاش : رؤوس العظام والمراد: العظم اللين الذي لا ثمن له. تهذيب اللغة ٢٠٠/١١ .
(٣) العريش المجور : الخيمة المقلوبة من جوَّر البناء إذا قلبه . لسان العرب ١٥٥/٤.
(٤) المحسَّر : الضعيف المحقر . الصحاح للجوهري ٦٣٠/٢ .

ثم يتابع الشاعر سخريته من هذا الصعلوك الفقير الذي يأكل بعرق جبينه، فيخدم النساء في بيوتهن بلا حرج من ذلك في نهاره ، فإذا جاء الليل طرح نائمًا على الأرض كالبعير الضعيف الذي ينام بالليل من شدة تعبه بالنهار.

ولا شك أن هذا منهج يخالف منهج الصعاليك؛ لأنهم يزاولون صعلكتهم، وسلبهم ونهبهم لأموال الناس وأعراضهم بالليل؛ حيث ينام الناس ، فهم ينامون النهار ويسهرون بالليل للسلب والنهب ، ومن ثم فالذي يأكل بعرق جبينه بالنهار لا يقدر على التلصص والسلب والنهب بالليل ، وأي فطرة تقتضي بأن تكون الخدمة بالنهار لكسب الحلال عارًا؟ ومتى كان النوم بالليل عارًا؟ إن هذا من باب قلب الحقائق والله – تعالى – يقول :﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ (١) .

٧ ـ العصبية الباطلة والفخر الكاذب :

قامت هذه العصبية على أنقاض العصبية القبلية ، فلما أعلنت القبائل العربية خلع هؤلاء الصعاليك ، نفروا من قبائلهم، وانضمُّوا إلى بعضهم تحت عباءة الصعلكة ، والسلب والنهب ، وأكل أموال الناس بالباطل .

ومع قرب العصبية القبلية من الفطرة ؛ لصلة الرحم التي تربط بين أبناء القبيلة ، إلا أنها قد تكون غير محمودة إذا أدت إلى التعالي على الخلق والافتخار عليهم ؛ ولأنه لا عصبية إلا للحقِّ الذي يقرُّه الإسلام ، فكيف بعصبية هؤلاء الصعاليك المبنية على السلب والنهب ، وسفك الدماء؟

لاشك أنها عصبية باطلة كاد هؤلاء الشعراء الصعاليك أن يجعلوها حقًا من كثرة حديثهم عنها وافتخارهم بها ، وإن شئت فقل : إنهم أرادوا تزيين الصعلكة في نفوس البشر؛ حتى لا ينظر المجتمع إليهم بعين الشذوذ والاحتقار

(١) آية رقم (١٠ ، ١١) من سورة : النبأ .

لا سيما بعد أن خلعهم قبائلهم على رؤوس الأشهاد ، فأخذوا يتحدثون عن الصعلكة مفتخرين بها ، ومبينين منهجهم فيها ، يقول عروة بن الورد[١] :

وَسائِلَةٍ أَينَ الرَحيلُ وَسائِلٍ ∴ وَمَن يَسأَلُ الصُعلوكَ أَينَ مَذاهِبُه
مَذاهِبُهُ أَنَّ الفِجاجَ عَريضَةٌ ∴ إِذا ضَنَّ عَنهُ بِالفَعالِ أَقارِبُه
فَلا أَترُكُ الإِخوانَ ما عُشتُ لِلرَدى ∴ كَما أَنَّهُ لا يَترُكُ الماءَ شارِبُه

فهو يتساءل عن مذهب هؤلاء الصعاليك ومنهجهم في الحياة ، فيجيب بأن مذهبهم يكمن في أن طرق الغنى كثيرة بالإغارة ، والسطو ، والعدوان على الأغنياء إذا بخلوا عليهم بالعطاء ؛ مما يرعب الأغنياء ويثير قلقهم .

وفي البيت الثالث يصرِّح بعصبيته لإخوانه الصعاليك فهم بالنسبة له كالماء الذي هو شريان الحياة ؛ ومن ثم فلن يترك صحبتهم ما دام حيًّا.

كما يبدو منهج الصعاليك واضحًا في قول عمرو بن براقة الهمذاني[٢]:

مَتى تَجمَعِ القَلبَ الذَكِيَّ وَصارِماً ∴ وَأَنفاً أَبِيّاً تَجتَنِبكَ المَظالِمُ
وَمَن يَطلُبِ المالَ المُمَنَّعَ بِالقَنا ∴ يَعِش مُثرِيّاً أَو تَختَرِمهُ المَخارِمُ

في البيت الأول أشار إلى منهجه في إبعاد الظلم عن نفسه ، وذلك بقوة قلبه ، وحدة سيفه ، وشدة أنفته وكرامته ، ولو اكتفى بهذا البيت لكان فارسًا من فرسان العرب ، لكنه أبي إلا أن يكون صعلوكًا ، فأشار إلى مغامرات هؤلاء الصعاليك في سلب المال الممنوع الحرام بأسلحتهم الحادة القوية ، مبينًا ثمرة الصعلكة في أن يعيش الصعلوك غنيًا ، أو أن يصيبه الموت وهو أهون عندهم من حياة الفقر وذل السؤال .

---

(١) ديوان عروة بن الورد ص ١٩ ، والأبيات من بحر الطويل .

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ٣٤٢/١ ط / ١٤١٨هـ – دار الكتب العلمية بيروت ، قواعد الشعر لأبي العباس ثعلب– تحقيق / رمضان عبد التواب ٨٥/١ ط / الثانية ١٩٩٥م – مكتبة الخانجي القاهرة ، والبيتان من بحر الطويل .

وترى عروة بن الورد يفخر بالصعلوك الذي يحترف الصعلكة ويمارسها بهمة عالية فيقول [١] :

وَلَكِنَّ صُعلوكاً صَفيحَةُ وَجهِهِ ∴ كَضَوءِ شِهابِ القابِسِ المُتَنَوِّرِ
مُطِلّاً عَلى أَعدائِهِ يَزجُرونَهُ ∴ بِساحَتِهِم زَجرَ المَنيحِ[٢] المُشَهَّرِ
إِذا بَعُدوا لا يَأمَنونَ اِقتِرابَهُ ∴ تَشَوُّفَ أَهلَ الغائِبِ المُتَنَظَّرِ
فَذالِكَ إِن يَلقَ المَنِيَّةَ يَلقَها ∴ حَميداً وَإِن يَستَغنِ يَوماً فَأَجدَرِ

فهو يرى أن الصعلوك الحق هو الذي يقدح وجهه نارًا من فرط قوته وسرعة إغارته وترقبه للأعداء يزجرونه من ساحتهم فيرجع ثم يخدعهم ويحقق هدفه في سلب غنائمهم كالقدح الذي يخرج ثم يرد إلى صاحبه ، ومن ثمَّ فمثل هذا الصعلوك يسبب لهم الرعب ، والفزع، فإذا ابتعدوا عنه لا يأمنون شره ، بل ينتظرون إغارته لهم ، وعدوانه عليهم في كل وقت .

وفي النهاية يقول : إن مثل هذا الصعلوك إن دنا أجله ، مات محمودًا عندهم، لشجاعته ، وإن عاش فهو جدير بالغنى والثراء الذي حققه من جراء صعلكته .

وأرى أن هذا الكلام يحتاج إلى إعادة نظر ، فكيف يكون محمودًا من مات على السرقة والتلصص والسلب والنهب بغير حق ؟

لا شك أن عروة يتعصب لهؤلاء الصعاليك عصبية باطلة ، ويفخر بهم فخرًا كاذبًا ، ولا عجب فهو زعيمهم الذي يرجو انتشار مذهبهم ، وقد انتشرت الصعلكة على مرِّ الدهور والأعوام ؛ لأنها لاقت من يصفِّق لها منخدعًا بسحر كلام هؤلاء الصعاليك ، وأشعارهم الفنية العالية .

---

(١) ديوان عروة بن الورد ص ٣٧ والأبيات من بحر الطويل .
(٢) المنيح : قدح من قداح الميسر يستعار ليتيمن بفوزه . تهذيب اللغة ٧٧/٥ .

وتدل قصة أصحاب الكنيف على عصبية عروة بن الورد لمنهج هؤلاء الصعاليك على الرغم من خيانة بعضهم لبعض ، فقد جاء في ديوان عروة أنه ذات يوم قيّض له وهو في ماوان رجل قد فر من قومه وهرب بمائة من الإبل، فلحق به عروة فقتله، وأخذ إبله وامرأته ، فأتى بالإبل أصحاب الكنيف الذين في كنفه من المرضى وكبار السن وأخذ يقسمها بينهم بالتساوي ، فقالوا : لا واللات والعزى لا نرضى حتى نجعل المرأة نصيبًا فمن شاء أخذها ، فغضب عروة وكاد أن يقتلهم وينزع الإبل منهم ثم تذكر أنهم صنيعته ، فإن قتلهم فقد أفسد ما صنع، ثم أجابهم إلى أن يرد عليهم الإبل إلا راحلة يحمل عليها المرأة حتى يلحق بأهله ، وقال عروة في ذلك [١] :

أَلا إِنَّ أَصحابَ الكَنيفِ وَجَدتُهُم ∴ كَما النـاسِ لَمّا أَخصَبوا وَتَمَوَّلوا
وَإِنّي لَمَدفوعٌ إِلَيَّ وَلاؤُهُم ∴ بِماوانَ إِذ نَمشي وَإِذ نَتَمَلمَلُ
فَإِنّي وَإِيّاكُم كَذي الأُمِّ أَرهَنَت ∴ لَهُ ماءَ عَينَيها تُفَدّي وَتَحمِلُ
فَلَمّا تَرَجَّت نَفعَهُ وَشَبابَهُ ∴ أَتَت دونَها أُخرى حَديداً تُكَبِّلُ
تُخَيَّرُ مِن أَمرَينِ لَيسا بِغِبطَةٍ ∴ هُوَ الثَكلُ إِلّا أَنَّها قَد تَجَمَّلُ

يقول: إن هؤلاء الصعاليك الذين هم في كنفه ورعايته قد أدركهم «بماوان» وهم هزلى من شدة الجهد فأنقذهم وأعلنوا له الولاء والطاعة فلما استغنوا بفضله عليهم خاصموه وأنكروا جميله .

وبعد ذلك يصور رعايته لهم بالأم التي أرهنت ماء عينيها لولدها، فلما تزوج ترك أمه من أجل زوجته، فباتت أمه حزينة تصوت وتتحسر وتدعو بالويل، وقد خيرت بين أن يموت ابنها فتشتفي من امرأته وتثكله، أو أن تصبر على هجره لها وميله لزوجته وكلا الأمرين أحلاهما مرٌّ بالنسبة لأمه ، إلا أنها قد تتجمل بالصبر عليه؛ لأنه ولدها فلا يعيرها أحد.

---

(١) ديوان عروة بن الورد ص ٥٦ : ٥٨ والأبيات من بحر الطويل .

وكذا عروة قد تجمَّل بالصبر على هؤلاء الصعاليك على الرغم من خسَّة أفعالهم معه.

لا شك أن القصة تكشف عن خيانة الصعلوك الذي أراد أن يسرق مائة من الإبل ويستقل بها عن بقية إخوانه الصعاليك، كما تكشف عن جرم زعيم الصعاليك الذي قتل هذا الصعلوك الخائن وأخذ امرأته ، وفعل مثل الصعلوك الخائن فاستقلَّ بهذه المرأة دون أن تدخل في القسمة مع بقية الصعاليك، مما أثار غضب هؤلاء الصعاليك فنسوا ما قدم لهم من كنف ورعاية ، وهكذا انقلب هؤلاء اللصوص بعضهم على بعض ، فقتل بعضهم بعضًا، واغتصب بعضهم حقوق الآخر؛ مما يدل على بطلان عصبيتهم ، وكذب فخرهم ، وقبح أفعالهم ، فبأي شيء يفخرون؟

وترى كثيرًا من النهايات المأساوية لهؤلاء الصعاليك ، فعمرو بن عجلان بن عامر الصعلوك الجاهلي الذي لقب بعمرو ذي الكلب الهذلي وثب عليه نمران فافترساه ومات بسببهما(١) .

وعبيد الله بن الحر الجعفي وجه إليه أمير الكوفة ستمائة فارس لقتاله، فلما بلغت منه الجروح انحاز إلى معبر فوثب إليه رجل نبطي ، فلما يئس عبيد الله قبض على النبطي وألقى بنفسه وبالنبطي في النهر فماتا معًا ، فقال والد النبطي : كان ابني يقتل الأسد حتى ابتلى بهذا الشيطان – يعني عبيد الله بن الحر الذي أغرقه معه (٢) .

ومن هذه القصة يتضح أن عبيد الله بن الحر قد مات منتحرًا بعد الإسلام وتلك نهاية كثير من هؤلاء اللصوص الشياطين الذين يستحلون دماء الناس، وأموالهم وأعراضهم بغير حق متعصبين لأفعالهم الدنيئة .

* * *

(١) ينظر : خزانة الأدب للبغدادي تحقيق / عبد السلام هارون ٣٨٥/١٠ ط / الرابعة ١٤١٨هـ – ط / مكتبة الخانجي – القاهرة ، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ص ١١٩ .

(٢) ينظر : خزانة الأدب ١٦١/٢ ، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ص ١٣٠ ، ١٣١ .

الفصل الرابع

النزغة الشيطانية

وأثرها في القيمة الفنية لشعراء الصعاليك

تمثل النزغة الشيطانية جانب الشر في شعر الصعاليك ، وقديمًا قال الأصمعي : « الشعر نكدٌ بابُهُ الشرَّ » (١) .

وهذا يدل على أن النزغة الشيطانية لها أثر عميق في البراعة الفنية لشعر الصعاليك ، ليس هذا فقط بل إن النزغة الشيطانية تجعلني أفجر قضية خطيرة قد جاء الحديث عنها في تراثنا الأدبي ، ألا و هي : قضية « شياطين الشعر » .

وقضية «شياطين الشعر» تنصُّ على أن لكل شاعر شيطانًا يلقِّنه الشعر ويعينه عليه، وقد أشار إلى هذه القضية المرزباني ، والثعالبي ، والراغب الأصفهاني (٢) .

والشيطان هو عدو الإنسان اللدود كما قال – تعالى – :﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (٣) .

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٩٦/١ ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب تأليف د/ إحسان عباس ص ٥١ ط / الرابعة ١٩٨٣م – دار الثقافة – بيروت – لبنان .

(٢) ينظر : الموشح في مآخذ العلماء على الشعر للمرزباني ص ٤٦٠ ، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب لأبي منصور الثعالبي ص ٧٠ ط / دار المعارف – القاهرة ، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهاني ٦٦٤/٢ ك / ١٤٢٠هـ – الأولى – بيروت .

(٣) آية رقم (٦) من سورة : فاطر .

وإذا كان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فليس ببعيد أن يوسوس له بالشعر ، ويلقنه إياه، ويعينه عليه ، ولا سيما الشعر الذي يدعو إلى الشرِّ والفساد، ويوقظ العداوة والبغضاء بين الناس .

ومن هنا يمكنني أن أقول : إن جانب الشر في شعر الصعاليك يعدُّ ترجمة عملية لقضية شياطين الشعر؛ مما كان له بالغ الأثر في علوِّ قيمته الفنية بغض النظر عن قبح أغراضه ومعانيه ، ولا عجب في ذلك فالشعر قد يكون قبيحًا في معانيه ، جيدًا في صياغته الفنية .

وجانب الشرِّ في شعر الصعاليك يعدُّ نتاج عبقرية الإنس والجن في آن واحد؛ لأن هذا الجانب من شعر الصعاليك مليء بالهجاء ، وسفك الدماء ، وسلب الأموال والأعراض بغير حق ، ناهيك عن التجاهر بالفسق، والعصبية الدنيئة والفخر الكاذب وغير ذلك من المعاني القبيحة التي أشعلت عبقرية الجن التي ستبدو واضحة في الخصائص الفنية لهذا الجانب السيئ من شعر الصعاليك كما سيأتي .

المبحث الأول

الأسلوب ، والمعنى

الأسلوب : هو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير[١] .

ومن هذا التعريف يتضح أن اللفظ هو وحدة بناء الأسلوب ، ومن ثم فجودة الألفاظ تؤدي إلى جودة الأسلوب ، وقبح الأسلوب ينتج من قبح الألفاظ، أو سوء تأليفها .

وقد أثرت حياة الصعاليك المضطربة بين الصحارى والقفار في ألفاظهم وأساليبهم فاتسمت بالقوة ، والإحالة ، والغموض ، فلولا قواميس العربية ما استطاع باحث أن يقف على المعاني المقصودة من أكثر هذه الأشعار- لا سيما - ما قيل منها في العصر الجاهلي كما في أشعار عروة بن الورد ، والشنفري ، وتأبط شرا ، وإن اتسمت بالسهولة أحياناً بعد مجيء الإسلام بحضاراته العريقة .

ولك أن تتأمل لامية العرب للشنفري الأزدي والتي يقول في بعضها[٢] :

وَلَيلَـةِ نَحـسٍ يَصـطَلِيَ القَـوسَ رَبُّهـا ∴ وَأَقطُعَـهُ اللائـي بِهـا يَتَنَبَّـلُ

دَعَسـتُ عَلـى غَطـشٍ وَبَغـشٍ وَصُـحبَتي ∴ سُـعارٌ وَإِرزيـزٌ وَوَجـرٌ وَأَفكَـلُ

فمن بلا قواميس العربية يقدر على كشف معاني هذه الكلمات : دعس ، غطش ، بغش ، سعار، إرزيز ، وجر ، أفكل؟

لاشك أنها كلمات صعبة قاسية تنبع من وعورة صحراء شبه الجزيرة العربية ، وقد تقدم شرحها في الفصل السابق .

---

(١) الأسلوب تأليف / أحمد الشايب ٤٤/١ ط / الثانية ٢٠٠٢م – مكتبة النهضة المصرية

(٢) خزانة الأدب للبغدادي ٣٤٦/١١ والبيتان من بحر الطويل .

وهناك علاقة قوة بين الأسلوب والمعنى ، فقد ذكر أبو هلال العسكري أن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان ، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة وكل منها يترتب على الآخر في فهمه(١) .

وترى العلاقة بين اللفظ والمعنى في صورة أقوى عند ابن رشيق ، حيث جعل اللفظ جسمًا ، وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصًا للشعر وهجنة عليه كما يعرض لبعض الأجسام من العرج ، والشلل ، والعور ، وكذلك إن ضعف المعنى كان للفظ أوفر حظ كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح(٢) .

وهذه العلاقة أدق وأقوى من العلاقة التي صورها أبو هلال العسكري.

فالأسلوب الذي تمثِّله الألفاظ هو جسد النص ، أو هيكل النص ، والمعنى هو روح النص ، ولابد من الائتلاف بين هيكل النص ، وروح النص ، وأهم ما ألفت نظري في الخصائص الفنية لشعر الصعاليك الشيطاني أنك ترى فيه أسلوبًا قويًّا من الناحية الفنية، ومعنى متدنيًا في قمة القبح الخلقي، كما في قول عروة يعير بني عامر بأخذه ليلى بنت شعواء الهلالية (٣) :

إن تَأخُذوا أَسماءَ مَوقِفَ ساعَةٍ ∴ فَمَأخَذُ لَيلى وَهيَ عَذراءُ أَعجَبُ
لَبِسنا زَماناً حُسنَها وَشَبابَها ∴ وَرُدَّت إِلى شَعواءِ وَالرَأسُ أَشيَبُ
كَمَأخَذِنا حَسناءَ كُرهاً وَدَمعُها ∴ غَداةُ اللِوى مَغصوبَةً يَتَصَبَّبُ

(١) ينظر : الصناعتين لأبي هلال العسكري تحقيق / علي البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٦٩ ط / ١٤١٩هـ – المكتبة العنصرية – بيروت .

(٢) العمدة لابن رشيق تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد ١٢٤/١ ط / الخامسة – دار الجيل .

(٣) ديوان عروة بن الورد ص١٨ والأبيات من بحر الطويل .

لاشك أن الأبيات قد أدت دورًا قويًا في النكاية والكيد، وهذه هي الناحية الفنية ، لكنها قد أدت هذا الدور بمعان متدنية ، فهل يليق بكريم الخلق أن يسلب امرأة من أهلها ويتمتع بحسنها وشبابها ثم يرميها على أهلها في شيخوختها، وبعد ذلك يعيِّر أهلها ويفخر عليهم بها ؟ وقد تقدمت قصة أبي الطمحان القيني مع صاحبة الدير التي آوته وأكرمته فسطا على شرفها ومالها وهرب ، ثم أخذ يفخر بهذه القصة على أنها تعد من أدنى ذنوبه ، فينشد ناقته المرقال ويقول[١] :

أَلا حَنَّتِ المِرقالُ وائتب[٢] رَبُّها ∴ تَذَكَّر أرمَامهَا[٣] وَأَذكُرُ مَعشَري

ونرى الأحيمر السعدي يفخر بسطوه على التجار وقوافلهم ، فيقول[٤] :

تُعَيِّرُني الإِعدامَ وَالبُدو مُعرِضٌ ∴ وَسَيفي بِأَموالِ التِجارِ زَعيمُ

والشنفري يفخر بسفكه للدماء وسلبه للأموال في غاراته الليلية ، فيقول[٥] :

فَأَيَّمتُ نِسواناً وَأَيتَمتُ آلَدَةً ∴ وَعُدتُ كَما أَبدَأتُ وَاللَيلُ أَلَيَلُ

وقد تقدم في الفصل السابق كثيرًا من المعاني المتدنية القبيحة التي أتت في شعر الصعاليك ، والتي تعدُّ من نزغات الشياطين ووسوستها لهم ؛ حتى اقتنعوا بها وآمنوا بالصعلكة كحرفة منجية من الفقر من أقرب طريق.

---

(١) المحاسن والأضداد للجاحظ ص ١٦٩ ، الشعر والشعراء ٣٧٦/١ ، والبيت من بحر الطويل .

(٢) وائتب : تهيأ للمفارقة . لسان العرب لابن منظور ٢٠٥/١ .

(٣) أرمام : اسم جبل في ديار باهلة بن أعصر ، وقيل واد في ديار بني أسد . معجم البلدان للحموي ١٥٤/١.

(٤) الأمالي لأبي علي القالي ٤٩/١ ط / الثانية – دار الكتب المصرية .

(٥) خزانة الأدب للبغدادي ٣٤٦/١١ والبيت من بحر الطويل .

ومما زاد من دهشتي وتعجبي لشعر الصعاليك أنني رأيت فيه سحرًا فنيًا يجذب العقول ويأخذ الألباب على الرغم من سوء سلوكهم ، فها هو عبد الملك بن مروان يعجب بقول عروة بن الورد مفتخرًا بكرمه وجوده[١]:

إِنّي امرُؤٌ عافي إِنائِيَ شِركَةٌ ∴ وَأَنتَ امرُؤٌ عافي إِنائِكَ واحِدُ

أُقَسِّمُ جِسمي في جُسومٍ كَثيرَةٍ ∴ وَأَحسو قَراحَ الماءِ وَالماءُ بارِدُ

يقول عبد الملك بن مروان: ما يسرُّني أن أحدًا من العرب ممن ولدني لم يلدني إلا عروة بن الورد ؛ لقوله السابق[٢].

وهذا ما ساق كثير من النقاد والأدباء إلى التغني بأخلاق الصعاليك ولا سيمَّا بالكرم والجود، والتكافل الاجتماعي، وهو المفهوم من ظاهر النص لكن الدراسات النقدية الحديثة لم تكتف في تحليل النص بالوقوف على ظاهره، فقد جدَّ في تحليل النص ما يسمى بعلم النص المتسع الذي يشمل أسلوبه، وموضوعه وسياقه العملي، والإدراكي، والنفسي، والتداولي، والثقافي، وكذلك معانيه ووظائفه، واستقباله، وتلقي القراء والسامعين له[٣].

وقد أشار أستاذنا الدكتور/ زهران إلى نظرية الجشطالت في تحليل العمل الأدبي، والتي تقوم على أن النظرة الكلية للسلوك هي التي تحدد دلالة وفحوى العمل الفني؛ ومنْ ثمَّ فهي تدعو إلى تفهم العمل الفني ككل في اتساعه وشمول معناه ، ورفض تجزئته ، والنظر إليه كوحدة نفسية تتجسد في اتحاد مكوناته الفنية ، وارتباطها مع بعضها بالفكر والوسائل التعبيرية[٤] .

---

(١) ديوان عروة بن الورد ص ٢٩ والأبيات من بحر الطويل .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦٦٥/٢ .

(٣) ينظر : ترويض النص دراسة للتحليل النصي في النقد المعاصر إجراءات ومنهجيات تأليف / حاتم الصكر ص ٣٢ ط / ٢٠٠٧م – الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٤) ينظر : مناهج النقد الحديثة «الرؤيا والواقع» للدكتور / زهران محمد جبرص١٠٣ ط/١٤٠٩هـ – دار الأرقم – الزقازيق .

وقد اتضح لي من خلال النظرة الكلية لحياة وشعر وسلوك الصعاليك ، ومدى احتقار المجتمع لهم ، ونفور قبائلهم من سلوكياتهم الرديئة وخلعهم لهم، أنهم يحاولون تصحيح ما شاع في المجتمع عنهم من سلوكياتهم الرديئة ، فيفتخرون بالكرم والجود؛ لعلهم يكسبون عطف المجتمع عليهم .

ولست أشك في تكافلهم الاجتماعي وعطفهم على الفقراء ، لكن هذا التكافل يكون فقط فيما بينهم؛ تعصُّبًا لصعلكتهم ، وإحياءً لها كحرفة يصلون بها إلى الغنى والثراء من أقرب طريق؛ ومنْ ثمَّ فهم يعطفون على الفقراء الصعاليك الذين ينهجون نهجهم .

وأيُّ عُرف أو شرع يجيز استحلال مال الغير بغير حق؟ وأي قيمة تكون للكرم والجود إذا كان من الكسب الحرام؟

من هنا أرى أن نفسية الشاعر تقضي بأنه يقتنع بصعلكته ، ويريد أن يقنع الآخر بها، فيفخر عليه بكرمه وجوده؛ حيث يشرك معه غيره في طعامه في الوقت الذي يأبى فيه الآخر إلا أن يكون طعامه لنفسه، وهو بهذا الفخر يطمح أن يندرج ضمن أهل المروءة والكرم .

وبعد تحليل النص تحليلاً يتصل بسلوك الشاعر وحياته يتضح أنه ينتقص من الآخر فيصفه بالبخل ، ومن ثم فهو يهدم غيره ليبني ذاته، وليس هذا هو شيمة أهل الكرم والجود، مما يدل على أن غرضه هو الرِّياء بحسن السمعة؛ ليهدم ازدراء المجتمع له ولإخوانه الصعاليك لسوء سلوكهم.

ليس هذا فقط، بل إني لأشم رائحة البخل في بيته الثاني الذي يقول فيه[١] :

أُقَسِّمُ جِسمي في جُسومٍ كَثيرَةٍ ∴ وَأَحسو قَراحَ الماءِ وَالماءُ بارِدُ

فهو يصور عطاءه لهؤلاء الفقراء وكأنه يقطع من جسده ليعطيهم ، وتلك شيمة أهل البخل إن حصل منهم العطاء ؛ لأن الكريم يعطي وكأنه لا يعطي شيئًا،

(١) ديوان عروة بن الورد ص ٢٩ والبيت من بحر الطويل .

ومن ثم فلا يرائى بعطائه؛ لأن الضيف لا يأكل سوى رزقه الذي كتبه الله – تعالى – له .

وترى الشيطان ينزغ لهم ويذكرهم بفقرهم وجوعهم ؛ ليكون ذلك مبررًا لصعلكتهم، وأكلهم أموال الناس بالباطل، فها هو تأبط شرًا يصف أمعاءه الخاوية وجسمه الهزيل، فيقول[١] :

قَليلِ اِدِّخارِ الزادِ إِلّا تَعِلَّةً ∴ وَقَد نَشَزَ الشُرسوفُ وَالتَصَقَ المِعا

وعبيد بن أيوب العنبري[٢] يتحدث عن نحول جسمه ، فيقول[٣] :

كَأَنّي وَآجالَ الظِّباءِ بِقَفرَةٍ ∴ لَنا نَسَبٌ نَرعاهُ أَصبَحَ دانِيا

وَأَينَ ضَئيلَ الشَّخصِ يَظهَرُ مَرَّةً ∴ وَيَخفى مِراراً ضامِرَ الجِسمِ عارِيا

فهو يصف نفسه وكأنه يرتبط بالنسب والقرابة مع ظبية الصحارى والقفار؛ لشدة ملازمته لهم في غاراته على الأغنياء؛ مبررًا ذلك لفقره وجوعه، وعريِّ جسده وضآلته، فلعله يكتسب عطف الإنسانية عليه؛ لفقره ونحول جسده.

ومهما يوحي له قرينه بهذا الأسلوب الشيطاني ، ويبرر له بالفقر والضعف، والحاجة ؛ للإغارة على أموال الناس وأكلها بالباطل؛ إلا أن المجرم وإن استتر في جريمته فلابد وأن يترك أثرًا يدل عليها .

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي . تحقيق / فريد الشيخ ٣٥١/١ ط / الأولى ١٤٢٤هـ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

(٢) هو : عبيد بن أيوب من بني العنبر، وكان جنى جناية فطلبه السلطان وأباح دمه فهرب في مجاهل الأرض ، وأبعد لشدة الخوف وكان يخبر في شعره أنه يرافق الغول ويبايت الذئاب والأفاعي ويأكل مع الظباء والوحش . الشعر والشعراء ٧٧١/٢ ، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه للدكتور/ عبد الحليم حفني ص ١٢٨، ١٢٩.

(٣) الحيوان للجاحظ ٤٠١/٦ ط / الثانية – دار الكتب العلمية – بيروت ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ٧٧١/٢ ، والبيتان من بحر الطويل.

وقد استتر الشاعر في شكوى الفقر ، والضعف، والوهن ولم يذكر شيئًا صريحًا عن صعلكته وتلصصه ، وأرى أن بيته الأول يدل على ذلك وإن لم يقصد الشاعر؛ حيث ذكر أن له نسبًا وقرابة بحيوانات الصحراء الوحشية؛ مما يدلُّ على أنه قد تجرَّد من إنسانيته فلا يحترم أعراف وتقاليد وشرائع المجتمع الإنساني، فصار كالحيوان الوحشي – لا عقل له – ، فيعتدي ويسطو على أموال الناس وأعراضهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وترى أثر النزعة الشيطانية واضحًا في أسلوبهم السَّاحر الذي يتفق مع العقل والواقع والمنطق ، وذلك في حديثهم عن الفقر وكراهية النفس له كما في مقطوعة عروة بن الورد التي يقول فيها(١) :

دَعيني لِلغِنى أَسعى فَإِنّي ∴ رَأَيتُ النَاسَ شَرَّهُمُ الفَقيرُ
وَأَبعَدَهُم وَأَهوَنُهُم عَلَيهِم ∴ وَإِن أَمسى لَهُ حَسَبٌ وَخيرُ
وَيُقصيهِ النَديُّ وَتَزدَريهِ ∴ حَليلَتُهُ وَيَنهَرُهُ الصَغيرُ
ويلقى ذو الغِنى وَلَهُ جَلالٌ ∴ يَكادُ فُؤادُ صاحِبِهِ يَطيرُ
قَليلٌ ذَنبُهُ وَالذَنبُ جَمٌّ ∴ وَلَكِن لِلغِنى رَبٌّ غَفورُ

فالأبيات توافق منطق المجتمع وواقعه الأليم، فالفقير هو شر الناس عند الناس وأهونهم عليهم، وإن كان ذا أخلاق نبيلة ، فتحتقره زوجته التي هي أقرب الناس إليه، ويسخر منه الصغير قبل الكبير، بخلاف الغني الذي يتلقاه الناس بالترحيب والتعظيم، فيكاد يطير قلبه من شدة الفرح والسرور والذنب إذا صدر منه فهو مغفور ولو كان من الكبائر.

وهكذا سحر الشاعر أعيننا بقراءة هذه الأبيات المنطقية الرائعة التي تنفِّر من حياة الفقر والفقراء، وترغِّب في الغنى والثراء بأسلوب شيطاني يحرِّك القلوب للعطف على الشاعر ، ويحرك العقول لكسب المال والثراء بأيِّ طريق كان لا سيمَّا

(١) ديوان عروة بن الورد ص ٤٥ والأبيات من بحر الوافر .

وقد جعل ذنوب الغني كلها مغفورة ولو كانت من الكبائر وكأن المغفرة مقصورة على الأغنياء، وهذه مبالغة لا يقرُّها الإسلام في شيء؛ لأن الغني مسؤول عن ماله ، من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟

وهذه المبالغة تعد نزغة شيطانية تسوِّل للشاعر وجمهوره أن يقترف من الذنوب ما شاء؛ ليصبح غنيًّا طالما أن ذنوب الغني كلها مغفورة، ومن ثمَّ يظهر لنا أثر جريمته وإن أخفاها؛ فهو يتخذ هذه النزغة الشيطانية سببًا للسطو على أموال الأغنياء وأكلها بالباطل؛ ليصبح غنيًا ، فيتاح له أن يفعل من الذنوب ما شاء ، فيسفك الدماء، ويسلب الأموال والأعراض ، ويتجاهر بالفسق بلا رادع فطرة، أو دين، أو حياء .

كما يظهر أثر جريمته في أول مقطوعته وذلك في قوله[1] :

دَعيني لِلغِنى أَسعى فَإِنّي ∴ رَأَيتُ النـاسَ شَرَّهُمُ الفَقيرُ

فهو يخاطب زوجته بقوله : (دعيني للغنى أسعي...) وهذا يدل على أن زوجته قد لامته على صعلكته واستحلاله أموال الناس، وسطوه عليها وأكلها بالباطل، وقد أرادت أن تثني همته عن ذلك فلم تستطع، وساق لها من الأسباب المنطقية التي تنفر في الفقر، وترغب في الغنى؛ حتى ترجع عن لومه.

وهذا يدلُّ على أن سعيه للغنى كان بطريق السلب والنهب، فلو كان بطريق الكسب الحلال لما لامته زوجته ، ولما وقفت في طريقه، وتراه في آخر النص يبرر لصعلكته بأن ذنوب الأغنياء كلها مغفورة ولو كانت من الكبائر؛ ومن ثم فقد كشف النص الشعري صاحبَهُ مهما استتر في أساليبه الشيطانية الساحرة، وتلك مهمة سر النص في تحليله وكشف أسراره ومعانيه، وإن استتر بها صاحبه.

---

(١) ديوان عروة بن الورد ص ٤٥ والبيت من بحر الوافر .

وقد كشف عبد الله بن جعفر بن أبي طالب سرَّ النص السابق فطلب من معلم ولده أن لا يعلمه أبيات عروة بن الورد السابقة؛ لأنها تدعو إلى الصعلكة وأكل أموال الناس بالباطل(١) .

وبعد هذه الأساليب الساحرة التي انخدع بها كثير من النقاد في الثناء على الصعاليك وأخلاقهم ؛ ظهرت أخلاقهم الرديئة في استمراء الحرام، والسطو على أموال الأغنياء وسلبها منهم، فصاروا شياطينا يمشون على الأرض، يقول بكر بن النطاح (٢) :

وَمَن يَفتَقِر مِنَّا يَعِش بِحُسامِهِ ∴ وَمَن يَفتَقِر مِن سائِرِ النَّاسِ يَسأَلِ

وعيشه بحسامه : أي بسيفه القاطع كناية عن صعلكته ، وسلبه أموال الناس عنوة بغير حق، لينبئ عن سوء معدن هؤلاء الصعاليك مهما استتروا علينا بأسلوبهم الشيطاني الساحر الذي يسحر الألباب والعقول .

وقد ترى في شعر الصعاليك خللاً واضحًا بين الأسلوب، والمعنى ، كما في قول عمرو بن براقة الهمذاني(٣) :

مَتى تَجمَعِ القَلبَ الذَكِيَّ وَصارِماً ∴ وَأَنفاً أَبِيّاً تَجتَنِبكَ المَظالِمُ

فهو يقول : إن الذي يجمع بين ذكاء القلب ، وحدَّة السيف، وكرامة النفس تجتنبه المظالم، فلا يقدر أحدٌ على ظلمه، وهذا المعنى وإن استقام مع حدة السيف، وكرامة النفس ، إلا أنه قد لا يستقيم مع ذكاء القلب؛ لأن ذكاء القلب يعني صلاحه، والقلب لا يصلح إلا بصلاح جميع الجوارح، قال (ﷺ) : « ألا وإن

(١) ديوان عروة بن الورد ص ٤٥.
(٢) زهر الآداب وثمر الألباب ١٠٣٧/٤، المستطرف في كل فن مستظرف ٢٣٢/١، والبيت من بحر الطويل .
(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة ٣٤٢/١ والبيت من بحر الطويل .

في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد السجد كلـــه ، ألا وهي القلب » [١] .

وكم من أناس قد امتازوا بذكاء القلب وحدة السيف، وكرامة النفس، وقد تحملوا من الظلم والأذى ما تحملوا؛ لأن القلب الماهر لا يفســد بالقتــل، وســفك الدماء، وسلب الأموال والأعراض؛ لئلا يفكر أحد في ظلمه والاعتداء عليه، بل قد يصبر على الظلم، والأذى حتى يأتيه النصر، فإذا فكر في القصاص ، اقتص فقــط بقدر ما ظلم ممن ظلمه، لكن الشاعر قد زين له الشيطان صعلكته وسفكه للــدماء بغير حق، فرأى أن ذلك لا يضرُّ بصلاح قلبه، بل سيعيش آمنًا من ظلم الظالمين .

وأرى أن الشاعر لو أبدل ذكاء القلب بقوته، وقسوته؛ لاستقام له أسلوب البيت مع معناه ، فيقول :

مَتــى تَجمَــعِ القَلــبَ القــوىَّ وَصــارِماً ∴ وَأَنفــاً حميًّــا تَجتَنِبــكَ المَظــالِمُ

وهو بهذا لا يضرُّ وزن البيت في شيء والله أعلم .

(١) صحيح البخاري . تحقيق / محمد زهير ٢٠/١ .

المبحث الثاني

العاطفة ، والصورة الشعرية

لا شك أن العاطفة بمعنى الشعور ، والإحساس هي عماد الشعر، وهي لغته الخاصة التي يختلف بها عن لغة العلم الذي عماده العقل والفكر(١) .

ويتحد العقل والفكر مع الإحساس والشعور؛ لتكوين ما يسمى بالتجربة الشعرية كما ذكر الدكتور / شوقي ضيف(٢) .

والعاطفة مقرُّها القلب، ومنْ ثمَّ فهي تصلح بصلاحه ، وتفسد بفساده فإذا صلح القلب كانت العاطفة نبيلة، وإذا فسد القلب كانت العاطفة رذيلة أو وضيعة ؛ ولذا أرى أن القلب هو العنصر الأساس في تكوين العاطفة التي تمثِّل اللغة الحقيقية للقلب، ولا عجب في أن يكون للقلب لغة يفهم بها أهل الصلاح، ولا يفهم بها أهل الشرِّ والفساد؛ ولذا ترى القرآن الكريم يصف المشركين بعدم الفهم القلبي، فقال – تعالى – : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾(٣) .

ومن هنا فقلوب الصالحين حية صالحة لأن تتفجر منها أنهار من العواطف الطاهرة النبيلة، فكيف بقلوب الفجار الذي عاشوا على السلب والنهب، وسفك الدماء، وأكل أموال الناس وأعراضهم بالباطل؟

إنها حياة هؤلاء الصعاليك ، فمن أين تأتيهم العواطف الطاهرة النبيلة ؟ وهل تنزغ الشياطين بعواطف نبيلة؟ الجواب لا تنزغ الشياطين إلا بعواطف خسيسة وضيعة، هي التي تمثِّل جانب الشرِّ في شعر الصعاليك.

---

(١) ينظر : الصورة الأدبية تاريخ ونقد لأستاذنا الدكتور/ علي علي صبح ص ٣٦ ط / دار إحياء الكتب العربية .

(٢) ينظر : في النقد الأدبي للدكتور/ شوقي ضيف ص ١٤٦ ، ١٤٨ ط/ الثامنة – دار المعارف

(٣) آية رقم (١٧٩) من سورة : الأعراف .

وهذا الجانب الشيطاني من شعر الصعاليك قد سيطرت عليه عاطفة البغض، فهم يبغضون حياة الفقر التي يعيشونها وينفرونها،، وقد لجأوا إلى الصعلكة وأكل أموال الناس بالباطل؛ للتخلص من الفقر المدقع الذي يعيشونه؛ ومن ثمَّ ترى عاطفتهم تقوى وتشتد في حديثهم عن الفقر، فها هو أبو النشناش النهشلي يفضل الموت على الفقر، فيقول(١) :

وَلَم أَرَ مِثلَ الفَقرِ ضاجَعَهُ الفَتى ∴ وَلا كَسَوادِ اللَيلِ أَخفَقَ طالِبُه
فَعِش معدمًا أَو مُت كَريماً فَإِنَّني ∴ أَرى المَوتَ لا يَنجو مِنَ المَوتِ هارِبُه

والحق إن عاطفة البغض وكراهية الفقر في حدِّ ذاتها لا تعدُّ عيبًا، لكن الشاعر قد اتخذها سببًا للسَّطو على أموال الأغنياء ونهبها بغير حق بطريق خدعتهم وهم نائمون في سواد الليل المظلم؛ ولذا فهو كما يكره الفقر، يكره الفقير الذي ينام ليله دون أن يسعى للغنى بالصعلكة في سواد الليل ، ثم يكنى عن صعلكته بما يكتنفها من مخاطر الهلاك والموت ، وإن كان يرى أن الذي يفرُّ من الموت قد لا ينجو منه .

وقد يجمع الشاعر عاطفة البغض مع عاطفة الحب في وقت واحد كما جمع عروة بن الورد بين عاطفة بغض الفقر، وحب الغنى والثراء في قوله(٢):

دَعيني لِلغِنى أَسعى فَإِنّي ∴ رَأَيتُ النَاسَ شَرَّهُمُ الفَقيرُ
وَأَبعَدَهُم وَأَهوَنَهُم عَلَيهِم ∴ وَإِن أَمسى لَهُ حَسَبٌ وَخيرُ
وَيُقصيهِ النَديُّ وَتَزدَريهِ ∴ حَليلَتُهُ وَيَنهَرُهُ الصَغيرُ
وَيُلفى ذو الغِنى وَلَهُ جَلالٌ ∴ يَكادُ فُؤادُ صاحِبُهُ يَطيرُ
قَليلٌ ذَنبُهُ وَالذَنبُ جَمٌّ ∴ وَلَكِن لِلغِنى رَبٌّ غَفورُ

(١) الأصمعيات ١١٩/١ ، الحماسة البصرية ١١٢/١ ، والبيتان من بحر الطويل.
(٢) ديوان عروة بن الورد ص ٤٥ والأبيات من بحر الوافر .

وقد التهبت عاطفة الشاعر وتدفقَّت في بغضه للفقر والفقراء، وحبِّه للغنى والثراء في وقت واحد، فقبح له شيطانه الفقير بطريقة مزرية تنفر منها النفس ، وزين له الغنى والثراء بطريقة تجذب النفس إلى السعي في طلبه بأيِّ طريق كان؛ ومن ثم تحركت عاطفة البغض ، والحب في قلب الشاعر، ليس هذا فقط، بل نزغه الشيطان ليولد له من بين عاطفتي البغض والحب عاطفة ثالثة، ألا وهي: عاطفة الطمع في أموال الأغنياء والسطو عليهم، والفتك بهم بغير حق؛ تمردًا على حياة الفقر والفقراء؛ وطمعًا في جلب الغنى والثراء ، ولو بطريق غير مشروع .

وعاطفة الطمع في أموال الأغنياء مفهومة من قوله: (دعيني للغنى أسعى) فاعتراض زوجته عليه ، ووقوفها أمامه يدلُّ على أن طمعه في الغنى كان بطريق السطو على أموال الأغنياء في ظلام الليل، ويؤكد ذلك ما ورد من شعره الذي يصور غاراته على الأغنياء ، وسفكه للدماء، وسلبه للأموال والأعراض كما تقدم في الفصل السابق.

ومن الواضح أن التجربة الشعرية في المقطوعة السابقة توافق المنطق، كما تتفق مع الواقع الاجتماعي الذي نعيشه في دنيا الناس فالذي يعيش في مجتمعنا يشعر ببغض الفقر وذلِّ الفقراء ، كما يشعر بحبِّ الغنى، وعزِّ الأغنياء؛ ومنْ ثمَّ يمكن وصف العاطفة فيها بالقوة، والتدفق، والصدق الفنيِّ؛ حيث صدق الشاعر في التعبير عن مشاعره وأحاسيسه كما يشعر بها وكما هي سائدة في المجتمع، لكن الصدق الفني ها هنا قد اصطدم مع الصدق الخلقي النابع من الفطرة الإنسانية ، وشرائع الأديان السماوية، فأي فطرة تقضي بأن يكون الفقير هو شرُّ الناس في جميع أحواله؟ لا شك أن الفقير الصابر خير عند أهل الفطرة السليمة من الغني.

وأيُّ دين يقضي بأن تكون المغفرة مقصورة على الأغنياء دون الفقراء؟ لا شك أن الفقير بصبره على ألم الفقر والجوع هو الأقرب إلى المغفرة من الغني .

لكن الشاعر آمن بتجربته بعد أن زيَّنها الشيطان له فاتخذها سببًا لأن يسطو على أموال الأغنياء، فيسلبها عنوة ولو بالقتل وسفك الدِّماء ، وأيُّ دين، أو فطرة أو عُرف يجيز له ذلك ؟

وعاطفة الطمع في شعر الصعاليك تعدُّ من أقبح العواطف؛ لأنها قد تؤدي إلى القتل وسفك الدماء؛ حتى يتمكن الصعلوك من سلب المال والثراء به دون أن يعترضه معترض ، والعجب كل العجب أنهم يفخرون بذلك ويتجاهرون بفسقهم! ، يقول الشنفري[١] :

فَأَيَّمتُ[٢] نِسواناً وَأَيتَمتُ آلَدَةً ∴ وَعُدتُ كَما أَبدَأتُ وَاللَيلُ أَلَيَلُ

ولا تقف عاطفة الطمع عند المال فقط، بل تتجاوزه إلى الطمع في الأعراض، والتعيير بها، كما في قصة عروة بن الورد مع ليلى بنت شعواء الهلالية بعد أن سلبها من أهلها، وعيرهم بها فقال[٣] :

إِن تَأخُذوا أَسماءَ مَوقِفَ ساعَةٍ ∴ فَمَأخَذُ لَيلى وَهيَ عَذراءُ أَعجَبُ
لَبِسنا زَماناً حُسنَها وَشَبابَها ∴ وَرُدَّت إِلى شَعواءِ وَالرَأسُ أَشيَبُ
كَمَأخَذِنا حَسناءَ كُرهاً وَدَمعُها ∴ غَداةُ اللِوى مَغصوبَةً يَتَصَبَّبُ

وعاطفة الطمع في الأعراض خاصة تعدُّ أقبح العواطف وأرذلها، ولا تليق إلا بأخلاق صعاليك البشر وشياطينهم ومن كان على شاكلتهم، وهي مع ذلك قوية متدفقة شديدة الغيظ والكيد للأعداء، ومنْ ثمَّ فهي نزغة شيطانية تكرهها الفطرة الإنسانية النقية .

وتقوى عاطفة الصعاليك أيضًا في عصبيتهم الحزبية وفخرهم الكاذب كما في قول عروة[٤] :

---

(١) خزانة الأدب للبغدادي ٣٤٧/١١ والبيت من بحر الطويل .
(٢) الأيم : المرأة العزباء التي لا زوج لها . تهذيب اللغة ٤٤٦/١٥ .
(٣) ديوان عروة بن الورد ص ١٨ ، والأبيات من بحر الطويل .
(٤) ديوان عروة بن الورد ص ١٩ ، والأبيات من بحر الطويل .

وَســائِلَةٍ أَيــنَ الرَحيــلُ وَســائِلٍ ∴ وَمَن يَسأَلُ الصُعلوكَ أَينَ مَذاهِبُه؟
مَذاهِبُــهُ أَنَّ الفِجــاجَ عَريضَــةٌ ∴ إِذا ضَــنَّ عَنــهُ بِالفَعــالِ أَقارِبُــه
فَلا أَترُكُ الإِخوانَ ما عُشتُ لِلرَدى ∴ كَمــا أَنَّــهُ لا يَــترُكُ المــاءَ شــارِبُه

فالصعاليك بالنسبة له كالماء فلا يستطيع فراقهم؛ مما يــدلُّ علــى قــوة عاطفته بهم، وحنينه إليهم .

وتفتر عاطفة الصعاليك في شعر الهجاء لا سيما في هجاء فضــالة بــن شريك الأسدي لعاصم بن عمر بن الخطاب ، وقوله[١] :

أَلا أَيهَــا البــاغي الْقرى لست واجــدا ∴ قــراك إِذا مَــا بــتّ فــى دَار عَاصِــم
إِذا جِئْتــه تبغــى الْقــرى بَــات نَائِمــا ∴ بطينــا وَأمسـى ضَـيفه غـير نَــائِم
وَلَوْلَــا يَــد الْفَــارُوق قلــدّت عَاصِــمًا ∴ مطوّقــة يجــدى بهَــا فــى المواسـم

فهو يصف ابن أمير المؤمنين بالبخل، ليبرز عاطفة البغض والحقد علــى الأمراء، وأئمة المسلمين ، والبخل وإن كان صفة مذمومة، إلا أن الشاعر لم تقو عاطفته فيه؛ لأن هذا الأمر لا يؤثر فيه كثيرًا؛ بالإضافة إلى كذبه وقبح نيته فــي ذلك .

كما تفتر عاطفة عروة بن الورد في ذكره للخمر في قوله[٢] :

سَـقَوني الـنَسءَ ثُـمَّ تَكَنَّفـوني ∴ عُــداةُ اللَــهِ مِــن كَــذِبٍ وَزورِ
وَقــالوا لَستَ بَعدَ فِداءِ سَلمى ∴ بِمُغــنٍ مــا لَــديكَ وَلا فَقــيرِ

ويبدو أن حديثه عن الخمر كان أمرًا ثانويًا ، كما أن حياته كانت مليئــة بالهم، والقلق، والاضطراب؛ ومن ثمَّ فلم تتسع للهو، والمرح، والتلذذ بالشــراب، فضعفت عاطفته كثيرًا .

---

(١) الحماسة البصرية ٢/٢٩٩ ، والأبيات من بحر الطويل .
(٢) ديوان عروة بن الورد ص ٣٢ ، والبيتان من بحر الطويل .

ويذكر أستاذنا الدكتور/ علي علي صبح أن العاطفة القوية هي التي تلهب التصوير وتسري حرارتها في الصورة الشعرية، فتبعث في النظم قوة التأثير[١] .

وهذه هي علاقة العاطفة بالصورة الشعرية ، فكلما تدفقت أحاسيس الشاعر، كلما اتضحت صورته الشعرية، وتعَّمقت ، بل إن العاطفة هي التي تحرك الصورة الشعرية في داخل النصِّ الشعري.

وقد أشار الدكتور/ عفيف عبد الرحمن إلى العلاقة بين العاطفة والصورة الشعرية فقال : «ينبغي في الشعر الآبد أن تكون الصورة غلافًا يغشى العاطفة، ويبطنها من الداخل، بل تنحل فيه العاطفة انحلال النسخ في النبتة، وذوبان الحمرة في الوردة»[٢] .

وإذا كانت الصورة الشعرية هي الغلاف الذي يغشى العاطفة، فلابد وأن يغلفها من الخارج كما ذكر الدكتور / عفيف عبد الرحمن، كما أن الصورة هي التي تلون العاطفة باللون الذي يليق بها.

والصورة الشعرية : هي الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص؛ ليعبر بها عن جانب من جوانب التجربة الشعرية في القصيدة؛ مستخدمًا طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة ، والتركيب والإيقاع، والحقيقة والمجاز، والترادف والتضاد، والمقابلة والتجانس وغيرها من وسائل التعبير الفني[٣] .

---

(١) ينظر : الصورة الأدبية تاريخ ونقد لأستاذنا الدكتور / علي علي صبح ص١٦ .

(٢) الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديمًا وحديثًا للدكتور / عفيف عبد الرحمن ص ٢٤٤ ط/ الأولى ١٩٨٧م – دار الفكر .

(٣) صور من الشعر الاجتماعي في العصر العباسي للدكتور / ضيف الله سعد الحارثي ص٨٧ ط / ١٤١٧هـ – جامعة أم القرى .

والخيال هو عماد الصورة الشعرية بأنواعه الثلاثة: التشبيه، والاستعارة، والكناية، وإن كان التشبيه هو أقوى الألوان الفنية التي اعتمد عليها الشعراء الصعاليك في شعرهم؛ لأنه يتفق مع السرعة الفنية التي لاحظناها في شعرهم ، والتي تعد في التشبيه صنعة سريعة لا تتجاوز عقد موازنة بين أمرين في معنى غير الاستعارة التي تعتمد على لون من الصنعة الفنية العميقة المتأنية؛ ولذا جعلوا التشبيه المرحلة الأولى التي تبنى عليها الاستعارة(١) .

والحق إن حياة الصعاليك لا تتسع للتعمق والتأني في صورهم الشعرية؛ ولذا كثر التشبيه في شعرهم ، وقد جاءت تشبيهاتهم من وحي البيئة الصحراوية التي يسرحون فيها للسطو والإغارة على الأغنياء .

فها هو أبو الطمحان القيني يصور لنا سفكه للدماء في صعلكته، فيشبه صوت طعنات سيفه المرعبة بنهيق ولد الحمار حينما ينهق من شدة الجوع ، فيقول(٢) :

بِضَربٍ يُزيلُ الهامَ عَن سَكَناتِهِ ∴ وَطَعنٍ كَتَشهاقِ العفاهم(٣) بالنَّهقِ

وهذه صورة بدوية تثير العجب ! فهي توحي بأن سيفه يشعر بفقره وجوعه؛ ومنْ ثمَّ فهو يصرخ في طعناته للأغنياء ؛ ليشعرهم بجوع صاحبه كما يصرخ ولد الحمار وينهق من شدة الجوع، وهذا الإيحاء يمثل سحرًا شيطانيًا خفيًا يعين الشاعر في رسم صورته الشعرية بطريقة تحفِّزه على الصعلكة وسفك الدماء بدافع الفقر والجوع .

وترى صورة دموية بشعة في قول السليك بن السلكة(٤) :

وَعاشِيَةٍ راحَت بِطاناً ذَعَرتُها ∴ بِسَوطِ قَتيلٍ وَسطُها يَتَسَيَّفُ

---

(١) ينظر : الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي للدكتور / يوسف خليف ص ٢٨٧ ، ٢٨٨.

(٢) شرح أدب الكاتب لابن قتيبة تأليف أبي منصور الجواليقي ٢٩٠ والبيت من بحر الطويل .

(٣) العفا : ولد الحمار. مقاييس اللغة لابن فارس ٥٩/٤.

(٤) الفاخر ١٦١/١ ، جمهرة الأمثال ٥٨/٢ ، والبيتان من بحر الطويل .

كَـــأَنَّ عَلَيــهِ لَــونَ بُــردٍ مُحَبَّــرٍ ∴ إِذا مـــا أَتـــاهُ صـــارِمٌ يَتَلَهَّـــفُ

نزغه الشيطان حتى قتل صاحب الإبل ولطخ إبله وثيابه بالدماء الحمـــراء التي بدت وكأنها حبر أحمر لأقلام حمراء، ولا زال الشيطان في سحره للشـــاعر؛ حتى أرضى ضميره عن قتله وسفكه للدماء بدافع الفقر والجوع ، فقال مفتخـــرًا بقتله وسفكه للدماء[١] :

وَمـــا نِلتُهـــا حَتّـــى تَصَـــعلَكتُ حِقبَـــةً ∴ وَكِـــدتُ لِأَســـبابِ المَنِيَّـــةِ أَعـــرِفُ

وَحَتّى رَأَيتُ الجُوعَ بِالصَيفِ ضَرَّني ∴ إِذا قُمتُ تَغشـاني ظِـلالٌ فَأُسـدِفُ

ومن صور التشبيه أيضًا في شعر الصعاليك قول عبيد الله العنبري[٢] :

كَأَنّي وَآجالَ الظِّباءِ بِقَفرَةٍ ∴ لَنا نَسَبٌ نَرعاهُ أَصبَحَ دانِيا

فهو لكثرة غاراته في الصحارى والقفار في ظلام الليل بـــين الحيوانـــات الوحشية أصبح يشبه هذه الحيوانات وكأنه من فصيلتها؛ حيث صار كالحيوانـــات يسير بقوانين الصحراء التي تتيح له أن يرتع ويتمتع في أملاك الآخـــرين بكـــل حرية وانطلاق ، وتلك نزغة فنية من شيطان رجيم قد اســـتطاع أن يجـــرد هـــذا الصعلوك من إنسانيته وعقله؛ ليعيش كالحيوان الذي لا يعرف حقوق الآخرين .

ومن التشبيه أيضًا قول عروة بن الورد يسخر من الفقير الذي يأكل بعرق جبينه[٣] :

قَليـلُ التِمـاسِ الـزادِ إِلّـا لِنَفسِـهِ ∴ إِذا هُـوَ أَمسـى كَـالعَرِيشِ المُجَـوَّرِ[٤]

يُعـينُ نِسـاءَ الحَـيِّ مـا يَسـتَعِنَّهُ ∴ وَيُمسـي طَليحـاً كَـالبَعيرِ المُحَسَّـرِ[٥]

---

(١) الفاخر ١٦١/١ ، جمهرة الأمثال ٥٨/٢ ، والبيتان من بحر الطويل .

(٢) الحيوان ٤٠١/٦ ، الشعر والشعراء ٧٧١/٢ ، والبيت من بحر الطويل .

(٣) ديوان عروة بن الورد ص ٣٧ ، والبيتان من بحر الطويل .

(٤) المجور : المقلوب من جوَّر البناء إذا قلبه . لسان العرب ١٥٥/٤.

(٥) المحسَّر : الضعيف المحقر . الصحاح للجوهري ٦٣٠/٢ .

فهو يشبه هذا الفقير الذي لا يستطيع أن يقيم صلبه من شدة التعب بالخيمة التي تسقط على الأرض من شد الرياح ، كما يسخر من خدمته لنساء الحيِّ بالنهار فإذا جاء الليل خرَّ نائمًا كالبعير الضعيف المنهك من شدة التعب، وهذه نزغة شيطانية تنفر من الكسب الحلال؛ لإحياء مدرسة الصعلكة والسلب والنهب كأقرب طريق إلى المال والثراء بلا جهد ولا مشقة، وهذه التشبيهات تعد مألوفة من وحي البيئة الصحراوية التي عاش فيها هؤلاء الصعاليك .

أما الاستعارة فقد جاءت بقلة في شعر هؤلاء الصعاليك؛ لأن حياتهم لا تتسع للعمق والتأني الذي تتطلبه الاستعارة والإفراط فيها .

ومن ذلك قول أبي النشناش النهشلي [١] :

فمت مُعدِمًا أَو عش كَريماً فَإِنَّني ∴ أَرى المَوتَ لا يَنجو مِنَ المَوتِ هارِبُه

حيث شبه الموت بإنسان طاغٍ سفيه يهرول مسرعًا وراء البشر فيقتلهم ويزهق أرواحهم ، وقد حذف المشبه به وكنى بشيء من لوازمه ، وهو : هروب من يلحق به من البشر أملاً في النجاة منه بلا جدوى على سبيل الاستعارة المكنية .

وهذه الاستعارة حقٌّ أريد به باطل ، فهو يريد أن الذي يقعد عن الصعلكة؛ تجنبًا لمخاطرها لن يسلم أيضًا من الموت والهلاك، بل يرى أن الموت في سبيل الغنى والثراء ولو بالسلب والنهب أكرم من حياة الفقراء والعدم، ولا تخفى النزغة الشيطانية التي في هذه الصورة التي تدعو إلى احتراف الصعلكة وأكل أموال الناس بالباطل، فالموت حق لا يفرُّ منه أحد، لكن كرامة الميت في أن يموت على الحق وفي سبيله لا أن يموت في سبيل الباطل.

---

(١) الأصمعيات ١١٩/١ ، الحماسة البصرية ١١٢/١ ، والبيت من بحر الطويل .

ومن صور الاستعارة قول عروة بن الورد في ليلى بنت شعواء الهلالية [١] :

لَبِسنا زَماناً حُسنَها وَشَبابَها ∴ وَرُدَّت إِلى شَعواءِ وَالرَأسُ أَشيَبُ

حيث شبه جمال هذه المرأة في شبابها بالثوب الجميل، وحذف المشبه به، وكنى بشيء من لوازمه وهو اللِّبس ، واشتق منه لبس على سبيل الاستعارة، وأي صورة أبشع من هذه الصورة الشيطانية؟ يسلب امرأة من أهلها ويتمتع بشبابها ثم يعيِّرهم بها .

أما الكناية فقد جاءت بكثرة في شعر الصعاليك ، فقول الشنفري[٢]:

فَأَيَّمتُ نِسواناً وَأَيتَمتُ آلَدَةً ∴ وَعُدتُ كَما أَبدَأتُ وَاللَيلُ أَليَلُ

كناية عن كثرة قتله ، وسفكه للدماء، وإزهاقه للأرواح في غاراته الليلية وسطوه على أموال الأغنياء ، ولا عجب ، فقد جرده الشيطان من إنسانيته، ليرتكب جريمتين من أبشع الجرائم، ألا وهما : جريمة القتل والسرقة بالإكراه.

وقول فضالة بن شريك الأسدي في هجاء عاصم بن عمر بن الخطاب[٣] :

إِذا جِئْتَه تبغي الْقرى بَاتَ نَائِما ∴ بطينا وَأمسى ضَيفه غير نَائِم

فالبيت فيه كناية عن بخله وقلَّة مروءته، وفيه جرأة من الشعراء الصعاليك على أولاد الملوك الذين نشأوا وترعرعوا على السخاء ، والعدل، والكرم .

وقول عروة [٤] :

لَحى اللَهُ صُعلوكاً إِذا جَنَّ لَيلُهُ ∴ مُصافي المُشاشِ[٥] آلِفاً كُلَّ مَجزَرِ

يَعُدُّ الغِنى مِن نَفسِهِ كُلَّ لَيلَةٍ ∴ أَصابَ قِراها مِن صَديقٍ مُيَسَّرِ

---

(١) ديوان عروة بن الورد ص ١٨ والبيت من بحر الطويل .

(٢) خزانة الأدب للبغدادي ٣٤٦/١١ والبيت من بحر الطويل .

(٣) الحماسة البصرية ٢٩٩/٢ والبيت من بحر الطويل .

(٤) ديوان عروة بن الورد ص ٣٧ والأبيات من بحر الطويل .

(٥) المشاش : رؤوس العظام. تهذيب اللغة ٢٠٠/١١ .

يَنـامُ عِشـاءً ثُـمَّ يُصـبِحُ ناعِسـاً ∴ يحـث الحَصـى عَـن جَنبِـهِ المُتَعَفِّـرِ
يُعـينُ نِسـاءَ الحَـيِّ مـا يَسـتَعِنَّهُ ∴ وَيُمسـي طَليحـاً كَـالبَعيرِ المُحَسَّـرِ

فالبيت الأول : كناية عن فقره وجوعه ، فهو محروم من أكل اللحم ويكتفي بأكل العظم الليِّن الذي لا ثمن له .

والبيت الثاني كناية عن تواضع هذا الفقير ورضاه عن ما تيسر له من الطعام والشراب وإن كان يسيرًا .

والبيت الثالث كناية عن فقره وخموله وتقاعسه عن مزاولة السطو والصعلكة في ظلام الليل .

والبيت الرابع كناية عن إرهاقه وتواضعه للكسب الحلال ، لكن الشاعر قد أملى عليه شيطانه لأن يسخر من هذا الفقير المحترم الذي يأكل من كسبه الحلال؛ حتى لا يقتدي به أحد من الفقراء ، فيلجأون إلى الصعلكة وأكل أموال الناس بالباطل؛ بدليل أن الشاعر في أول هذه القصيدة يقول : «لحي الله صعلوكًا» ليدل على عدم رضاه عن هذا الصعلوك وسخريته منه؛ لإذلاله في خدمة النساء .

وهكذا اعتمدت الصورة الشعرية في شعر الصعاليك على التشبيه والاستعارة والكناية ، وإن كانت الاستعارة هي أقل هذه الصور؛ لأن حياتهم المليئة بالقلق والمغامرات لم تتسع لها .

وهناك عناصر أخرى ساهمت في تشكيل الصورة الشعرية عند الصعاليك وكان من أهم هذه العناصر ما يلي :

عنصر الحركة : وهذا العنصر يعدُّ من أهم عناصر الصورة الشعرية في هذا الجانب من شعر الصعاليك ؛ لأن حياتهم مبنية على الإغارة والسطو على أموال الأغنياء؛ ومن ثم فقد امتازوا بخفة الحركة حتى إنهم ليفخرون بذلك، يقول عروة [١] :

(١) ديوان عروة بن الورد ص ٥٣ : ٥٥ والأبيات من بحر الطويل .

لَعَـلَّ انطِلاقـي في الـبِلادِ وَبُغـيَتي ∴ وَشَـدّي حَيـازيمَ المَطِيَّـةِ بِالرَحـلِ
سَـيَدفَعُني يَومـاً إِلى رَبِّ هَجمَـةٍ ∴ يُـدافِعُ عَنهـا بِـالعُقوقِ وَبِالبُخـلِ
قَليـلٌ تَواليهـا وَطالـبُ وِترِهـا ∴ إِذا صِحتُ فيهـا بِـالفَوارِسِ وَالرَجـلِ
إِذا مـا هَبَطنـا مَـنهَلاً في مَخوفَـةٍ ∴ بَعَثنـا رَبيئـاً [1] في المَرابِـئِ كَالجِـذلِ [2]
يُقَلِّـبُ في الأَرضِ الفَضـاءِ بِطَرفِـهِ ∴ وَهُـنَّ مُناخـاتٌ وَمِرجَلُنـا يَغلـي

قال عروة هذه الأبيات بعد أن سلب إبل بني القين وبعض نسائهم، وأخذ يصور خفة حركته وسطوه عليهم ، وفتكه بهم في هذه الأبيات التي سبق شرحها، فقوله : انطلاقي، وشدّي ، سيدفعني ، هجمة ، هبطنا ، بعثنا ، يقلب، يغلي؛ كلها ألفاظ تدل على الحركة والاضطراب ؛ مما يدلُّ على أن الصورة الشعرية مفعمة بالحيوية والنشاط .

وقول عبدة بن الطبيب في خمرياته [3] :

وَقَـد غَـدَوتُ وَقَـرنُ الشَمسِ مُنفَتِـقٌ ∴ وَدونَـهُ مِـن سَـوادِ اللَيـلِ تَجليـلُ
إِلى التِجـارِ فَأَعـدائي بِلِذَّتِـهِ ∴ رِخـوُ الإِزارِ كَصَـدرِ السَيفِ مَشمولُ

فالألفاظ : غدوت، منفتق، أعدائي توحي بالحركة والنشاط في الإسراع إلى الخمارين لشرب الخمر التي هي أم الخبائث، والتي هي عمل الشيطان ليوقع بها العداوة والبغضاء بين الناس.

كما ساهم عنصر الحجم في تشكيل الصورة الشعرية ، يقول عروة ابن الورد بعد أن سلب ليلى الهلالية من قومها وتوعدوه بالقتل [4] :

تَبَغّـانِيَ الأَعـداءُ إِمّـا إِلى دَمٍ ∴ وَإِمّـا عُـراضِ السـاعِدَينِ مُصَـدَّرا

---

(١) الربئ : الرقيب وربأت القوم إذا كنت لهم طليعة . جمهرة اللغة لابن دريد ١٠٩٧/٢ .
(٢) الجذل : أصل الشجرة . جمهرة اللغة ٤٥٤/١ .
(٣) المفضليات ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، والبيتان من بحر البسيط .
(٤) ديوان عروة بن الورد ص ٣٤ والبيت من بحر الطويل .

فهو لا يخشى الأعداء، وإن كانت سواعدهم عريضة ممتدة؛ ليفتخر بشجاعته وقد يدل عنصر الحجم على انكماش الصورة كقول فضالة بن شريك في هجاء عبد الله بن الزبير[١] :

شكوت إليه أن نقبت قلوصي ∴ فرد جواب مشدود الصفاد

لقد أسمعت لو ناديت حيًّا ∴ ولكن لا حياة لمن تنادي

فقوله (نقبت قلوصي) توحي بانكماش الصورة؛ ليعرب عن فقره وضعفه لعاصم؛ لعله يتكرم عليه بالعطاء، لكنه لم يستجب وكأنه ميت لا يسمع كناية عن بخله .

وقد ينكمش حجم الصورة انكماشًا معنويًا كقول عروة بن الورد في صفة الفقير [٢] :

وَيُقصيهِ النَدِيُّ وَتَزدَريهِ ∴ حَليلَتُهُ وَيَنهَرَهُ الصَغيرُ

فالإقصاء والازدراء يدلان على انكماش صورة الفقير واحتقاره بين الناس .

وقد تنكمش الصورة انكماشًا معنويًا ، وتتمدَّد في وقت واحد كقول عروة ابن الورد في صفة الغني [٣] :

قَليلٌ ذَنبُهُ وَالذَنبُ جَمٌّ ∴ وَلَكِن لِلغِنى رَبٌّ غَفورُ

فجرم الغنى في حقيقته وإن كنا كبيرًا؛ إلا أنه في أعين الناس صغير لا وزن له ؛ ومن ثمَّ فقد شفع له الغنى في التغاضي عن ذنبه وإن كان كبيرًا، وكأنه يقول : إن الغنى والثراء يمحوان الذنوب والآثام ؛ فليقترف الغني ما شاء من الجرائم، وهذه نزغته الشيطانية التي مهدت له سبيل الصعلكة وأكل أموال الناس وسلب أعراضهم بلا رادع دين أو حياء .

---

(١) الحماسة البصرية ٣٠٠/٢ ، ٣٠١ والبيتان من بحر الوافر .

(٢) ديوان عروة بن الورد ص ٤٥ والبيت من بحر الوافر .

(٣) ديوان عروة بن الورد ص ٤٥ والبيت من بحر الوافر .

وأيضًا ساهم عنصر الصورة في تشكيل الصورة الشعرية بطريقة واضحة كما في قول أبي الطمحان القيني [١] :

بِضَربٍ يُزيلُ الهامَ عَن سَكَناتِهِ ∴ وَطَعنٍ كَتَشهاقِ العفاهم بالنَّهقِ

فطعنات سيفه لها صوت مرعب كنهيق ولد الحمار الذي ينهق من شدة الجوع ، ومن ثم فهي تزيل الرِّقاب والرؤوس ؛ مما يوحي بأن هذه الطعنات تصرخ حزنًا على هذا الفقير ، لتثأر بقطع رؤوس وأعناق الأغنياء الذين تركوه يتخبط في ظلام الفقر والجوع، وتلك فلسفة شيطانية تناقض العقل والشرع والمنطق ، فتكاسله عن الكسب الحلال هو الذي جره إلى الفقر والجوع .

وأيضًا ساهم عنصر اللون في تشكيل الصورة الشعرية كقول السليك بن السلكة مصورًا إحدى غاراته [٢] :

وَعاشِيَةٍ راحَت بِطاناً ذَعَرتُها ∴ بِسَوطٍ قَتيلٍ وَسطُها يَتَسَيَّفُ

كَأَنَّ عَلَيهِ لَونَ بُردٍ مُحَبَّرٍ ∴ إِذا ما أَتاهُ صارِمٌ يَتَلَهَّفُ

فقد نهب الإبل، وقتل صاحبها ، ولطخ ثيابه بالدم الذي يشبه لون الحبر الأحمر؛ مما يوحي بقبح وشناعة جرائمه الشيطانية .

أما عنصر الرائحة فتراه في شعر الخمريات كما في قول عبدة بن الطبيب [٣] :

ثُمَّ اصطحبت كُمَيتاً[٤] قَرقَفاً[٥] أُنُفاً ∴ مِن طَيِّبِ الراحِ وَاللَذّاتُ تَعليلُ

صِرفاً مِزاجاً وَأَحياناً يُعَلِّلُنا ∴ شِعرٌ كَمُذهَبَةِ السَمّانِ[٦] مَحمولُ

---

(١) شرح أدب الكاتب لابن قتيبة تأليف أبي منصور الجواليقي ص ٢٩٠ والبيت من بحر الطويل.

(٢) الفاخر للمفضل بن عاصم ١٦١/١ ، جمهرة الأمثال ٥٨/٢ والبيتان من بحر الطويل.

(٣) المفضليات ص ١٤٣ ، ١٤٤ والبيتان من بحر البسيط .

(٤) الكميت :من أسماء الخمر لشدة حمرتها . المخصص لابن سيده ١٩٥/٣ .

(٥) سميت الخمر فرقفًا ؛ لأنها تترقف أي : ترعد . معجم ديوان العرب ٤٨٣/٢ .

(٦) السمان : الطوال . تهذيب اللغة ٢٤٠/١٥ .

فهو يصور رائحة الخمر الممزوجة بالروائح العطرية ؛ لتطييب رائحتها الخبيثة، لكن ذلك لا يخرجها عن كونها خمرًا تدعو إلى اقتراف الجرائم والآثام ، فهي من نوازغ الشياطين التي توسوس بالفساد في الأرض.

وهكذا لم تقتصر الصورة الشعرية لجانب الشر في شعر الصعاليك على التشبيه، والاستعارة ، والكناية ، بل ساهمت فيها عناصر حسية أخرى كعنصر الحيوية والحركة ، والحجم، واللون ، والرائحة ، كما ساهمت فيها الألفاظ الموحية ، والأساليب القوية ، والعاطفة الجياشة، والإيقاع الموسيقي؛ مما أدى إلى تكوين صورة كلية متماسكة تسري في شراييها أفكار الشياطين الفاسدة التي تزيِّف الشرائع والحقائق ، وتهدم العادات والتقاليد ، وتسحر العقول والألباب، فتدعو بحجة الفقر إلى القتل وسفك الدماء، وسلب الأموال والأعراض، وهدم العقول وهلاك المجتمعات.

المبحث الثالث

الإيقـــــاع الموسيقـــي

عرَّف الدكتور / محمد مندور الإيقاع الموسيقي فقال : «هو تردد ظـــاهرة معينة على مسافات زمنية متساوية ، أو متقابلة داخل الوحدة الموســـيقية»[١] ، وهناك إيقاع موسيقي ينجم عن اختيار الألفاظ، والأساليب القويـــة الموحيـــة ذات الرنين ، والجرس الموسيقي؛ ومن ثم انقسم الإيقاع الموسيقي إلى قسمين :

القسم الأول : الإيقاع الناتج عن الموسيقى الخارجية :

التي تتمثل في وحدة الوزن والقافية ، وما يلحق بهما من ألوان البديع .

أما بالنسبة لوحدة الوزن فلم يخرج هذا الجانب الشيطاني لشعر الصعاليك عن وحدة الوزن الموروثة في الشعر العربي منذ قديم ، ليس هذا فقـــط بـــل إن الغالبية العظمى من شعرهم الشيطاني قد جاء من بحر الطويل ، فلم أجد إلا ثلاث مقطوعات من بحر الوافر ، ومقطوعة من بحر البسيط ، وأخرى من الكامل، ولا عجب في ذلك فثلث الشعر العربي تقريبًا منه قد جاء من بحر الطويل كمـــا ذكـــر الدكتور/إبراهيم أنيس[٢] .

وبحر الطويل هو أفضل بحور الشعر العربي ، وأرحبها صدرًا ، وأطلقهـــا عنانًا، وألطفها نغمًا، وقد تقبل من الشعر ضروبًا عدة ينفر منها غيره، مما يـــدل على سعته[٣] .

وقد جاء شعرهم الشيطاني من البحور السابقة في وضعها التام الذي طال بتمام أجزائه؛ لأن هذا الشعر يحمل أفكارهم المسبوكة بأفكار شياطينهم في وقـــت

---

(١) الأدب وفنونه للدكتور / محمد مندور ص ٣٤ ط/ ١٩٩٦م – دار نهضة مصر .

(٢) ينظر: موسيقى الشعر . تأليف د/ إبراهيم أنـــيس ٥٩ ط/ السادســـة ١٩٨٨م – مكتبـــة الأنجلو المصرية

(٣) ينظر : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها للدكتور / عبد الله المجذوب ٣٩٢/١ .

واحد، ومن ثم فلا تتسع البحور القصيرة للتعبير عن هذه الأفكار المختلطة بما تحمله من معانٍ ماكرة تقصد إلى الشر، والفساد في الأرض ، ولك أن تتأمل قول عروة[١] :

وَسائِلَةٍ أَينَ الرَحيلُ وَسائِلٍ ∴ وَمَن يَسأَلُ الصُعلوكَ أَينَ مَذاهِبُه؟
مَذاهِبُهُ أَنَّ الفِجاجَ عَريضَةٌ ∴ إِذا ضَنَّ عَنهُ بِالفَعالِ أَقارِبُه
فَلا أَترُكُ الإِخوانَ ما عُشتُ لِلرَدى ∴ كَما أَنَّهُ لا يَترُكُ الماءَ شارِبُه

وقول عمرو بن براقة[٢] :

وَمَن يَطلُبِ المالَ المُمَنَّعَ بِالقَنا ∴ يَعِش مُثرِياً أَو تَختَرِمهُ المَخارِمُ

فأي بحور الشعر القصيرة تستطيع أن تلم بهذا التنويع، والتفصيل في أساليب مكرهم وفسادهم؟

وأغلب أشعارهم قد جاءت على هيئة مقطوعات قليلة الأبيات؛ ويرجع ذلك إلى حياتهم المضطربة التي يعيشونها بين الصحارى والقفار مضطربين في غاراتهم وسطوهم على الأغنياء؛ بغية الغنى والثراء .

وقد جاءت بعض القصائد الطويلة عند الشنفري ، وعروة بن الورد ، كما في رائيته التي منها قوله[٣]:

وَلَكِنَّ صُعلوكاً صَفيحَةُ وَجهِهِ ∴ كَضَوءِ شِهابِ القابِسِ المُتَنَوِّرِ
مُطِلّاً عَلى أَعدائِهِ يَزجُرونَهُ ∴ بِساحَتِهِم زَجرَ المَنيحِ المُشَهَّرِ
إِذا بَعُدوا لا يَأمَنونَ اِقتِرابَهُ ∴ تَشَوُّفَ أَهلَ الغائِبِ المُتَنَظَّرِ
فَذالِكَ إِن يَلقَ المَنِيَّةَ يَلقَها ∴ حَميداً وَإِن يَستَغنِ يَوماً فَأَجدَرِ

(١) ديوان عروة بن الورد ص ١٩ والبيتان من بحر الطويل .
(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ٣٤٢/١ والبيت من بحر الطويل.
(٣) ديوان عروة بن الورد ص ٣٧ ، والأبيات من بحر الطويل .

وقد استهلها بالحملة على عاذلته حتى تترك لومه على الصعلكة، وأخذ يفصل لها مدى حاجته إلى الغنى، وكراهيته للفقر والجوع الذي ينقص قيمة الصالحين ، ثم أخذ يهجو ويسخر من كل صعلوك فقير يأكل بعرق جبينه، ويتمرد على حرفة الصعلكة، وعلى النقيض أخذ يمدح ويشجع كل صعلوك قوي يرعب أعداءه من الأغنياء، ويسلب أموالهم، وهو بهذا يدعو لإحياء الصعلكة من أجل الغنى والثراء؛ ولذا استحق أن يكون زعيم هؤلاء الصعاليك .

وقد جمعت هذه القصيدة بين طولها بكثرة أبياتها، ومجيئها على البحر الطويل التام الذي يطول بتمام أجزائه ويتسع ليحمل ما في عقل الشاعر وشيطانه من أفكار ، كما أن بحر الطويل هو الأنسب للتعبير عن نفسية الشاعر الحزينة من الفقر والجوع والحقد على الأغنياء ، والتمرد على القدر، وعلاجه لذلك بالصعلكة وأكل أموال الناس بالباطل، ولا عجب فهناك علاقة بين أوزان القصائد وحالة الشاعر النفسية، فقد لاحظ الخليل بن أحمد أن الشعراء حينما يعبرون عن حالات الحزن إنما يعبرون عنها في الأوزان الطويلة(١) .

هذا بالإضافة إلى الإيقاع الموسيقي لهذه الأوزان القوية الفخمة، والذي يتناسب مع قلق واضطراب وقسوة قلوب هؤلاء الشعراء الصعاليك ومردتهم من الجن .

وتتحد القافية مع الوزن في إحداث هذا التنغيم الموسيقي القوي، فقد امتاز شعرهم أيضًا بوحدة القافية لا فرق في ذلك بين الشنفري الجاهلي وبكر بن النطاح الذي عاش في بداية العصر العباسي .

---

(١) ينظر : التفسير النفسي للأدب للدكتور/ عز الدين إسماعيل ص ٨٠ ط / ١٩٦٣ – دار المعارف – القاهرة .

وقد تعدد حرف الروى في قصائدهم ومقطوعاتهم بين الباء، والدال، والراء ، واللام، والميم على حسب اختلاف الشعراء، وتنوع أمزجتهم، وظروفهم النفسية، وما يمليه عليهم شياطينهم من القوافي.

وقد استحوذت القافية المطلقة على شعر الصعاليك حتى لا تكاد تجد غيرها إلا نادرًا ، والقافية المطلقة : هي ما كان رويُّها متحركًا، والمقيدة : ما كان رويها ساكنًا كما ذكر الدكتور/ عبد العزيز نبوي[١] .

والقافية المطلقة هي التي تناسب قلقهم واضطرابهم، كما تناسب سرعة سطوهم وعدوانهم على الأغنياء وأموالهم؛ ولذا فهي الأكثر في شعرهم .

وندر مجيء القافية المقيدة في شعرهم كما في قول عروة[٢] :

دَعيني لِلغِنى أَسعى فَإِنّي ∴ رَأَيتُ النـاسَ شَرَّهُمُ الفَقيرُ

وَأَبعَدَهُم وَأَهوَنَهُم عَلَيهِم ∴ وَإِن أَمسى لَهُ حَسَبٌ وَخَيرُ

وفي البيت الثاني عيب من عيوب القافية، ألا وهو : السِّناد: وهو عدم مراعاة الشاعر للتناسب قبل حرف الروي سواء في الحروف أو الحركات .

والسناد هنا من باب سناد الحذو : وهو اختلاف حركة ما قبل الردف بحركتين متباعدتين[٣] .

فالقاف في بيت عروة الأول مكسورة، وتناسبها الخاء في البيت الثاني لكنها منصوبة ومن هنا جاء سناد الحذو، ويمكن للشاعر أن يهرب من هذا السِّناد، فيقول :

---

(١) الإطار الموسيقي للشعر ملامحه وقضاياه للدكتور/ عبد العزيز نبوي ٢٦٩/١ ، ٢٧١ ط / ١٩٨٧م ط / الصدر (سينسكو) .

(٢) ديوان عروة بن الورد ص ٤٥ والبيتان من بحر الوافر .

(٣) موسيقى الشعر العربي دراسة فنية وعروضية للدكتور / حسني عبد الجليل ١٤٨/١ ط / ١٩٨٩م – الهيئة المصرية العامة للكتاب .

وَأَبعَـــدَهُم وَأَهـــوَنَهُم عَلَـــيهِم ∴ وَإِن أَمســـى لَـــهُ حَسَـــبٌ وفـــيرُ

فتستقيم له القافية بلا عيب، كما يستقيم له الوزن، والمعنى والله أعلـى وأعلم .

وقد ساهمت بعض ألوان البديع مع وحدة الوزن والقافيـة فـي تكـوين الموسيقى الخارجية بإيقاعاتها المنتظمة ، وإن جاء ذلك بقلة ، وكان من أهم هذه الألوان ما يلي :

الطباق ورد العجز على الصدر في قول فضالة بـن شـريك فـي هجـاء عاصم[١] :

إذا جِئْتَه تبغـى الْقـرى بَـاتَ نَائِمـا ∴ بطينـا وَأمسـى ضَـيفه غـيرَ نَـائِمِ

فبين قوله : نائمًا وغير نائم طباق، كما أن فيهما أيضًا رد لعجـز البيـت على صدره وهو من المحسنات اللفظية الرائعة .

كما ترى جناسًا رائعًا في قول الشنفري[٢] :

فَأَيَّمتُ نِسواناً وَأَيتَمتُ آلَدَةً ∴ وَعُدتُ كَما أَبدَأتُ وَاللَيلُ أَلَيَلُ

فبين أيَّمت وأيتمت جناس ناقص؛ لأن الأولى يترتب عليها وفاة الـزوج، والثانية يترتب عليها وفاة الأب .

وبين قوله: عُدتُّ وأبدأت طباق رائع باستعمال اللفظ وضده في المعنى .

وبين قول الشنفري : أيَّمت ، وأيتمت ، وأبدأت موازنة لفظية رائعة، فهي متساوية في الوزن ، متوالية في نفس البيت ويلي بعضها بعضًا ، وهي من أجمل المحسنات البديعية اللفظية .

وترى المقابلة الطريفة في قول أبي النشناش النهشلي[٣] :

فمت مُعدِمًا أَو عـش كَريمـاً فَـإِنَّني ∴ أَرى المَـوتَ لا يَنجـو مِـنَ المَـوتِ هارِبُـه

---

(١) الحماسة البصرية ٢٩٩/٢ ، والبيت من بحر الطويل .

(٢) خزانة الأدب للبغدادي ٣٤٦/١١ والبيت من بحر الطويل .

(٣) الأصمعيات ١١٩/١ ، الحماسة البصرية ١١٢/١ ، والبيت من بحر الطويل .

فقابل بين الموت والعيش، والعدم والكرم ، وهي مقابلة معنيين بمعنيين ، وهي من المحسنات البديعية المعنوية الرائعة .

وقد ذابت محسنات البديع اللفظي مع محسنات البديع المعنوي؛ لتصب مع الوزن والقافية في بوتقة إيقاع الموسيقى الخارجية بروعتها الفنية .

القسم الثاني : الإيقاع الناتج عن الموسيقى الداخلية :

والموسيقى الداخلية : هي التي يكون مبعثها عناية الشاعر بانتقاء ألفاظ خاصة تعبر تعبيرًا دقيقًا عن انفعالاته وعواطفه، أو تكرار حروف خاصة تقوم على أساس الحركات والسكنات التي تتكون من التفعيلة الشعرية (١) .

والفرق بين الموسيقى الخارجية، والموسيقى الداخلية، أن الموسيقى الخارجية يتردد إيقاعها بطريق منتظم كما في الوزن والقافية وبعض ألوان البديع التي تربط بين الألفاظ التي بينها وبعضها علاقة منتظمة سواء كانت علاقة لفظية أو معنوية كما تقدم .

أما الموسيقى الداخلية فتهتم باختيار الألفاظ ذات الإيقاع الموسيقي الذي يتناسب مع نفسية الشاعر وموضوع شعره ، وذلك إما بتنوع هذه الألفاظ الموسيقية أو بتكرارها بطريقة غير منتظمة .

وقد بدت الموسيقى الداخلية واضحة في قول الشنفري(٢) :

وَلَيلَـةِ نَحـسٍ يَصـطَلِيَ القَـوسَ رَبُّهـا ∴ وَأَقطُعَـهُ اللائـي بِهـا يَتَنَبَّـلُ(٣)

دَعَستُ(٤) عَلى غَطشٍ(٥) وَبَغشٍ(٦) وَصُحبَتي ∴ سُعارٌ(٧) وَإِرزِيزٌ(٨) وَوَجرٌ(٩) وَأَفكَلُ(١٠)

---

(١) النقد التطبيقي والموازنات للدكتور / محمد الصادق عفيفي ص ٢٥١ ط / ١٣٩٨هـ – مكتبة الخانجي القاهرة .
(٢) خزانة الأدب للبغدادي ٣٤٦/١١ ، والبيتان من بحر الطويل .
(٣) يتنبل : من تنبل إذا اتخذ النبل وهو : عظام المدر والحجارة . المصباح المنير ٥٩١/٢.
(٤) دعست : وطأت بشدة . جمهرة اللغة لابن دريد الأزدي ٦٤٤/٢ .
(٥) الغطش : الظلمة . تهذيب اللغة للأزهري ٤٠/٨ .
(٦) البغش : المطر . جمهرة اللغة ٣٤٤/١ .
(٧) السعار : شدة الجوع وللهيبه . ينظر : تهذيب اللغة ٥٣/٢ .
(٨) أرزيز : صوت البرد القارص . ينظر : معجم اللغة العربية المعاصرة ٨٨٤/٢
(٩) وجر : أي خوف . ينظر : المخصص لابن سيده ٢٨٦/٤
(١٠) الأفكل : الرعدة التي تعلو الإنسان . تهذيب اللغة ١٤٣/١٠ .

فالألفاظ : يصطلي ، دعست ، غطش، بغش، وجر ، أفكل ؛ كلها ألفاظ متنوعة وذات إيقاع موسيقي يتناسب مع جبروت الشاعر ، وعدوانه ، وسطوه على الأبرياء ، كما يتناسب مع البيئة الصحراوية المقفرة التي تعدُّ مسرحًا لجرائمه الشنعاء ، وقد تقدم تحليل هذه الألفاظ وما توحيه من معانٍ قاسية تتناسب مع بيئة الشاعر القاسية التي يمارس صعلكته فيها .

وقد يساهم تكرار بعض الألفاظ بطريقة غير منتظمة في إحداث تنغيم الموسيقى الداخلية كما في قول عروة[1] :

وَسائِلَةٍ أَينَ الرَحيلُ وَسائِلٍ ∴ وَمَن يَسأَلُ الصُعلوكَ أَينَ مَذاهِبُه

مَذاهِبُهُ أَنَّ الفِجاجَ عَريضَةٌ ∴ إِذا ضَنَّ عَنهُ بِالفَعالِ أَقارِبُه

فقد كرر السؤال كثيرًا في سائلة ، وسائل ، ويسأل؛ مما أحدث إيقاعًا موسيقيًا خفيًا يتناسب مع حيرة هذا الصعلوك وقلقه في غاراته على أموال الأغنياء إذا بخل عليه أقاربه بالعطاء ، كما يتناسب مع حبه للصعلكة ، وإلحاحه في ذكرها والدعوة إليها كسبيل من سبل النجاة من الفقر والجوع، وتلك فلسفة شيطانية قذرة تتعارض مع قوانين الفطرة السليمة، والشرع الحنيف .

وهكذا ساهم الإيقاع الموسيقي بنوعيه في تجلية الصورة الشيطانية التي يدعو إليها شعر هؤلاء الصعاليك بدقة أسلوبية محكمة ، وبراعة فنية سامية، وخبث شيطاني دنئ .

* * *

(١) ديوان عروة بن الورد ص ١٩ والبيتان من بحر الطويل .

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاتمة

الحمد لله الذي أرهب أهل الشر والفساد ، فأمر بقتلهم ، أو صلبهم ، أو قطعهم، أو نفيهم من البلاد ، فقال – تعالى – : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾(١) .

وأصلي وأسلم على سيدنا محمد الذي أعلن الحق وبه صدع، وأزال الفسق والبدع وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ... وبعد :

فبعد أن ركز الباحثون على جوانب الخير في شعر الصعاليك شاء الله – تعالى – لي أن أسطر هذا البحث؛ للكشف عن جوانب الشر في شعرهم ، والتي تعد من نزغات شياطينهم ومن ثم فقد أثمر هذا البحث كثيرًا من الثمار والنتائج التي من أهمها :

١ – كشف هذا البحث عن المعنى الحقيقي للصعلكة والذي يدور حول الفتك والتلصص والفساد وغيرها من المعاني القبيحة التي تعد من نوازغ الشياطين ثم تخصص في جمع أشعار الصعاليك التي تدور حول هذه المعاني الشيطانية، وذلك من بين ثنايا مصادر الأدب القديمة، وبين ما فيها من أفكار وأغراض خبيثة .

٢ – أثار هذا البحث قضية مهمة ألا وهي : قضية أخلاق الشعراء الصعاليك، وإفراط النقاد في الثناء عليهم ، فصحح من ذلك وأبرز جوانب الشر المتأصلة في شعرهم على الرغم من مكرهم ودهائهم في إخفائها ؛ حتى يقف القارئ على الصورة الحقيقية لأخلاق وشعر هؤلاء الصعاليك.

---

(١) آية رقم (٣٣) من سورة : المائدة .

٣ – أشار هذا البحث إلى أن الصعلكة لم تقتصر على العصر الجاهلي فقط، بل امتدت بعده إلى العصور الإسلامية كعصر صدر الإسلام وبني أمية والعصر العباسي .

٤ – فسر هذا البحث الصعلكة كظاهرة بيئية فلم ترتبط بعصر دون عصر بل امتدت من العصور القديمة حتى عصرنا الحديث؛ حيث لم يعد الشعر ديوانًا للعرب كما كان في العصور القديمة، فحلت محله الرواية العربية – إلى حدٍّ ما – ، وبدت الصعلكة واضحة جلية في الروايات التي تمثل مطارید الجبل ، والهاربين من تنفيذ الأحكام الجنائية ؛ ومن ثم يكون هذا البحث قد ربط بين صعاليك العصر القديم ، وصعاليك العصر الحديث .

٥ – كشف هذا البحث عن أهم مظاهر النزغة الشيطانية في شعر الصعاليك ؛ ممثلة في التمرد على القدر ، والتجاهر بالفسق وسفك الدماء ، وأكل أموال الناس ، وسلب أعراضهم بالباطل؛ بالإضافة إلى شعرهم في الخمر، والهجاء والسخرية من أشراف الفقراء ، وعصبيتهم الطائفية ، وفخرهم الكاذب .

٦ – كشف هذا البحث عن العلاقة الخفية التي بين الشعراء الصعاليك ، وبين شياطينهم من الجن الذين ينزغون إليهم بهذه المعاني القبيحة؛ ولذا أرى أن هذا البحث يعد ترجمة عملية لقضية «شياطين الشعر» التي أشار إليها النقاد في تراثنا الأدبي القديم .

٧ – أنكر هذا البحث لهذه المعاني الشيطانية التي جاءت في شعر الصعاليك ، فنفر من الاقتداء بهم ، ودعا إلى إماتة الصعلكة التي تتنافر مع الفطرة وشرائع المجتمعات الإنسانية .

٨ – إذا كان شعر الصعاليك الشيطاني في عداد نتاج عبقريتي الإنس والجن معًا، فلابد وأن يكون له أثره العالي في علو قيمته الفنية على الرغم من قبح أفكاره ومعانيه .

٩ – أفصح هذا البحث عن سحر أسلوبي خفي لديه قدرة على تقبيح الحسن، وتحسين القبيح من المعاني بمكر ودهاء شيطاني خبيث؛ حتى استطاع هذا الأسلوب الساحر أن يخدع كثيرًا من النقاد في شعر هؤلاء الشياطين من العرب .

١٠– بالإضافة إلى طرافة موضوع هذا البحث وجدَّته ، فقد أدليت برأيي الخاص في مسائل كثيرة منه، وقمت بتعديل بعض الأبيات التي تتنافر مع قواعد الذوق النقدي السليم؛ تعديلاً يقضي بتلاؤمها لهذه القواعد مع سلامة وزن الأبيات وقافيتها(١) .

١١– كشف هذا البحث عن عاطفة شيطانية خبيثة تدعو إلى الإغارة والسطو والطمع في أموال الناس وأعراضهم بغير حق، وقد ثارت عاطفة الطمع مرتكزة على عاطفتي الحب ، والبغض ، فهؤلاء الصعاليك يبغضون الفقر والفقراء، ويحبُّون الغنى والثراء .

١٢– تقارب شعر هؤلاء الصعاليك في أسلوبه وعاطفته ووحدته الفنية على الرغم من اختلاف عصور هؤلاء الشعراء ، وإن ترددت العاطفة أحيانًا بين القوة والضعف على حسب الظروف والأحوال .

١٣– صور هذا البحث الجانب الشيطاني لشعر الصعاليك بصور شعرية رائعة ترتكز على التشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، وقد ساهم في تكوينها عنصر الحركة ، والحجم ، والصوت ، واللون ، والرائحة فضلاً عن قوة الأسلوب وفخامة ألفاظه الموسيقية الموحية .

١٤– كشف هذا البحث عن إيقاع موسيقي رائع في الشعر القديم ؛ ممثلاً في الموسيقى الخارجية والداخلية؛ ومن ثم يكون البحث قد جمع بين أصالة النصوص الشعرية القديمة ، وبراعة الدراسات الفنية الحديثة .

---

(١) ينظر : البحث ص :

١٥- وفي النهاية أوصي مؤرخي الأدب الجاهلي الذي امتلأ بالثناء على أخلاق الصعاليك وكأنهم ملائكة بين البشر بأن يوقفوا القارئ على النزغات الشيطانية في شعر الصعاليك؛ لأنها هي الأصل في حياتهم وأخلاقهم ، كما أنها تتفق مع الأصل اللغوي لمفهوم الصعلكة، ومن هنا تكتمل الصورة الكلية لهؤلاء الشعراء الصعاليك وما يكتنفها من خير أو شر .

١٦- وأيضًا أوصي بمزيد الاهتمام بشعراء صعاليك العصر الإسلامي ، والحديث عنهم في تاريخ أدب صدر الإسلام ، والأدب الأموي، والأدب العباسي مع بيان أثر الإسلام في توبة من تاب منهم .

١٧- وأخيرًا أوصي إخواني من الباحثين والدارسين بالبحث عن ظاهرة الصعلكة في العصر الحديث ، وذلك في الروايات العربية الحديثة التي حلت محل الشعر، والتي صورت مطاريد الجبل ، والهاربين من الأحكام الجنائية بطريقة تذكرنا بالشعراء الصعاليك في العصور الأولى .

هذا وأرجو من الله – تعالى – أن يطهر هذا العمل من الرياء، وأن يغفر لي ما كان فيه من زلات ، وأن ينفعني به والمسلمين والمسلمات ، وأن يجعله في ميزان حسناتي وحسنات من أشاد به وقومه؛ لينفع الله – تعالى – به الباحثين والباحثات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د/ ماهر أحمد سيد علي سقال
المدرس بقسم الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية بأسيوط

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم : جلَّ من أنزله

أولاً : المصادر والكتب الأساسية في موضوع البحث :

[١] أخبار النساء لابن الجوزي تحقيق د/ نزار رضا ط / ١٩٨٢م – مكتبة الحياة – بيروت.

[٢] الأصمعيات الأصمعي تحقيق : أحمد محمد شاكر ، عبد السلام محمد هارون ط / السابعة سنة ١٩٩٣م – دار المعارف.

[٣] الأمالي لأبي علي القالي ط / الثانية – دار الكتب المصرية.

[٤] البيان والتبيين للجاحظ ط / ١٤٢٣هـ – دار مكتبة الهلال – بيروت – لبنان.

[٥] تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) للدكتور / شوقي ضيف ط / دار المعارف.

[٦] الجليس الصالح الكافي لأبي الفرج النهرواني تحقيق عبد الكريم الجندي ط / الأولى ط / ١٤٢٦هـ – دار الكتب العلمية – بيروت.

[٧] جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ط / دار الفكر – بيروت.

[٨] الحماسة البصرية لصدر الدين أبي الحسن البصري تحقيق / مختار الدين أحمد ط / عالم الكتب – بيروت.

[٩] حماسة القرشي لعباس بن محمد القرشي تحقيق / خير الدين قبلاوي ط ١٩٥٥م – وزارة الثقافة – دمشق .

[١٠] الحيوان للجاحظ ط / الثانية – دار الكتب العلمية بيروت .

[١١] خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي تحقيق / عبد السلام هارون ط / الرابعة ١٤١٨هـ – مكتبة الخانجي بالقاهرة.

[١٢] دراسات في الأدب الجاهلي للأستاذ الدكتور / علي محمد طلب ط / الثالثة ١٤٢٨ه – مروة الخير – أسيوط

[١٣] ديوان عروة بن الورد العبسي ط ١٣٨٤ه – دار صادر بيروت.

[١٤] ربيع الأبرار ونصوص الأخيار لجار الله الزمخشري ط / الأولى ط ١٤١٢هـ – مؤسسة الأعلمي – بيروت .
[١٥] رحلة الشعر للدكتور / مصطفى الشكعة ط / الدار المصرية اللبنانية .
[١٦] زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق الحصري القيرواني ط/ دار الجيل بيروت.
[١٧] شرح ابن الأنباري على المفضليات ط ١٩٢٠ – بيروت.
[١٨] شرح أدب الكاتب لابن قتيبة تأليف أبي منصور الجواليقي تقديم مصطفى صادق الرافعي ط / بيروت.
[١٩] شرح المعلقات التسع لأبي عمرو الشيباني تحقيق وشرح / عبد المجيد همو ط / الأولى ١٤٢٢هـ – بيروت – لبنان .
[٢٠] شرح ديوان الحماسة للتبريزي ط / دار القلم ــ بيروت.
[٢١] شرح ديوان الحماسة للمرزوقي . تحقيق / فريد الشيخ ط / الأولى ١٤٢٤هـ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .
[٢٢] شعر الصعاليك منهجه وخصائصه . تأليف : د/ عبد الحليم حفني بدون طبعة .
[٢٣] الشعر والشعراء لابن قتيبة ط سنة ١٤٢٣هـ ط / دار الحديث – القاهرة.
[٢٤] الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي للدكتور / يوسف خليف ط / دار غريب – القاهرة .
[٢٥] طبقات الشعراء لابن المعتز تحقيق / عبد الستار فراج ط / الثالثة – دار المعارف – القاهرة.
[٢٦] العقد الفريد لابن عبد ربه ط / الأولى ١٤٠٤هـ – دار الكتب العلمية – بيروت.
[٢٧] عيون الأخبار لابن قتيبة ط/ ١٤١٨ه – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.
[٢٨] الفاخر للمفضل بن عاصم تحقيق / عبد العليم الطحاوي ط / الأولى ١٣٨٠هـ – دار إحياء الكتب العربية.

[٢٩] في الأدب الجاهلي للأستاذ الدكتور / زهران محمد جبر، ط / الأولى ط/ ١٤٢٢هـ – مطبعة الأزهر – أسيوط .

[٣٠] في تاريخ الأدب الجاهلي لعلي الجندي ط / ١٤١٢هـ – دار التراث الأول .

[٣١] قصة الأدب في الحجاز لعبد الله عبد الجبار ، محمد عبد المنعم خفاجى ط / مكتبة الكليات الأزهرية .

[٣٢] قواعد الشعر لأبي العباس ثعلب- تحقيق / رمضان عبد التواب ط / الثانية ١٩٩٥م – مكتبة الخانجي القاهرة.

[٣٣] الكامل في اللغة والأدب للمبرد تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ط / الثالثة ١٤١٧هـ – دار الفكر العربي – القاهرة .

[٣٤] مجاني الأدب في حدائق العرب لابن يعقوب شيخو ط / ١٩١٣م – مطبعة الآباء اليسوعيين

[٣٥] المحاسن والأضداد للجاحظ ط / ١٤٢٣هـ – دار الهلال بيروت.

[٣٦] محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهاني ط / الأولى ١٤٢٠هـ – دار الأرقم – بيروت.

[٣٧] المستطرف في كل فن مستظرف لأبي الفتح الأبشيهي ط / الأولى ١٤١٩هـ – عالم الكتب – بيروت .

[٣٨] مصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد ط / السابعة ١٩٨٨م ط / دار المعارف – مصر .

[٣٩] المفضليات تحقيق وشرح / أحمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون ط/ السادسة – دار المعارف – القاهرة.

[٤٠] نقد الشعر لقدامة بن جعفر البغدادي ط / الأولى ١٣٠٢هـ .

ثانياً : المصادر والمراجع العامة في موضوع البحث

[٤١] الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديمًا وحديثًا للدكتور / عفيف عبد الرحمن ط/ الأولى ١٩٨٧م – دار الفكر .

[٤٢] الأسلوب تأليف / أحمد الشايب ط / الثانية ٢٠٠٢م – مكتبة النهضة المصرية.

[٤٣] أشعار عنترة العبسي تقديم وشرح / محمد عبد المنعم خفاجى ط/ الأولى ١٣٨٨ه – مكتبة القاهرة.

[٤٤] الإطار الموسيقي للشعر ملامحه وقضاياه للدكتور/ عبد العزيز نبوي ط / ١٩٨٧م ط / الصدر (سينسكو) .

[٤٥] الأعلام للزركلي ط / الخامسة عشر ٢٠٠٢م – دار العلم للملايين

[٤٦] الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ط / أولى ١٤٢٤ه – بيروت.

[٤٧] تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدي ط / دار الهداية

[٤٨] تاريخ النقد الأدبي عند العرب تأليف د/ إحسان عباس ط / الرابعة ١٩٨٣م – دار الثقافة – بيروت – لبنان .

[٤٩] ترويض النص دراسة للتحليل النصي في النقد المعاصر إجراءات ومنهجيات تأليف/حاتم الصكر ط/٢٠٠٧م– الهيئة المصرية العامة للكتاب.

[٥٠] التفسير النفسي للأدب للدكتور/ عز الدين إسماعيل ط / ١٩٦٣ – دار المعارف – القاهرة .

[٥١] تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري تحقيق : محمد عوض مرعب ط الأولى سنة ٢٠٠١م – دار إحياء التراث العربي – بيروت .

[٥٢] ثمار القلوب في المضاف والمنسوب لأبي منصور الثعالبي ط / دار المعارف – القاهرة.

[٥٣] الجبال والأمكنة والمياه لجار الله الزمخشري تحقيق د/ أحمد عبد التواب ١ط / ١٣١٩ه – دار الفضيلة – القاهرة .

[٥٤] جمهرة اللغة لابن دريد الأزدي تحقيق / رمزي بعلبكي ط / الأولى دار العلم – بيروت .

[٥٥] جمهرة أنساب العرب لابن حزم ط/ الأولى– دار الكتب العلمية – بيروت .
[٥٦] ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت تقديم : د / حنا نصر ط الأولى ط ١٤١٥هـ – دار الكتاب العربي.
[٥٧] ديوان السموأل بن عادياء تحقيق د/ واضح الصمد ط / الأولى ١٤١٦هـ دار الجيل – بيروت .
[٥٨] ديوان حاتم الطائي شرح وتقديم / أحمد رشاد ط/ الأولى ١٤٠٦ه ط/ دار الكتب العلمية بيروت .
[٥٩] ديوان حسان بن ثابت ط ١٣٩٨هـ – دار بيروت .
[٦٠] سنن ابن ماجة تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ط / دار إحياء الكتب العربية.
[٦١] سنن الترمذي تحقيق / أحمد شاكر ط الثانية سنة ١٣٩٥هـ
[٦٢] الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) لأبي نصر الجوهري الفارابي تحقيق / أحمد عطار .
[٦٣] صحيح مسلم تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ط / دار إحياء التراث العربي – بيروت .
[٦٤] الصناعتين لأبي هلال العسكري تحقيق / علي البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ط / ١٤١٩هـ – المكتبة العنصرية – بيروت .
[٦٥] صور من الشعر الاجتماعي في العصر العباسي للدكتور / ضيف الله سعد الحارثي ط / ١٤١٧هـ – جامعة أم القرى .
[٦٦] الصورة الأدبية تاريخ ونقد لأستاذنا الدكتور/ علي علي صبح ط / دار إحياء الكتب العربية .
[٦٧] العمدة لابن رشيق تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد ط / الخامسة – دار الجيل .
[٦٨] الفاضل لأبي العباس المبرد ط / الثالثة ١٤٢١هـ دار الكتب المصرية – القاهرة .
[٦٩] في النقد الأدبي للدكتور/ شوقي ضيف ط/ الثامنة – دار المعارف

[٧٠] لسان العرب لابن منظور ط / الثالثة سنة ١٤١٤ه – دار صادر
[٧١] مجمل اللغة لابن فارس تحقيق / زهير سلطان ١ط / الثانيـــة ١٤٠٦هـ – مؤسسة الرسالة – بيروت .
[٧٢] المحكم لابن سيده تحقيق / عبد الحميد هنـــداوي ط / الأولـــى ١٤٢١هـ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .
[٧٣] المخصص لابن سيده تحقيق / خليل جفـــال ط / الأولـــى ١٤١٧هـ – دار إحياء التراث العربي – بيروت .
[٧٤] المصباح المنير للفيومي ط / المكتبة العلمية – بيروت – لبنان .
[٧٥] معجم البلدان للحموي ط / الثانية دار صادر.
[٧٦] معجم اللغة العربية المعاصرة للدكتور / أحمد مختار عبد الحميد ط الأولى ١٤٢٩هـ .
[٧٧] المعجم الوسيط . تأليف / مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار). ط / دار الدعوة .
[٧٨] معجم ديوان العرب للفارابي تحقيق د / أحمد مختار عمـــر ط ١٤٢٤هـ – مؤسسة دار الشعب – القاهرة .
[٧٩] مقاييس اللغة لابن فارس تحقيق / عبد السلام هارون – ط / ١٣٩٩هـ – دار الفكر .
[٨٠] مناهج النقد الحديثة «الرؤيا والواقع» للدكتور / زهران محمد جبـــر ط / ١٤٠٩هـ – دار الأرقم – الزقازيق .
[٨١] موسيقى الشعر . تأليف د/ إبـــراهيم أنـــيس ط/ السادســـة ط/ ١٩٨٨م – مكتبة الأنجلو المصرية .
[٨٢] موسيقى الشعر العربي دراسة فنية وعروضية للـــدكتور / حســـني عبـــد الجليل ط / ١٩٨٩م – الهيئة المصرية العامة للكتاب .
[٨٣] نزهة الجلساء في أشعار النساء للسيوطي ط / مكتبة القرآن بولاق – القاهرة.
[٨٤] النقد التطبيقي والموازنات للدكتور / محمد الصادق عفيفـــي ط / ١٣٩٨هـ – مكتبة الخانجي القاهرة .

فهرس الموضوعات

م	الموضـــــوع	رقم الصفحة
١	**المقدمة**	٢٤٠٣
٢	**تمهيد** : مفهوم الصعلكة وعلاقتها بالنزغة الشيطانية	٢٤٠٨
٣	**الفصل الأول** الشعراء الصعاليك بين الجاهلية والإسلام .	٢٤١٣
٤	**الفصل الثاني** أخلاق الشعراء الصعاليك ورأي النقاد فيهم .	٢٤٢١
٥	**الفصل الثالث** أهم مظاهر النزغة الشيطانية في شعر الصعاليك	٢٤٣٣
٦	**الفصل الرابع** النزغة الشيطانية وأثرها في القيمة الفنية لشعر الصعاليك	٢٤٦٢
٧	**المبحث الأول** : الأسلوب والمعنى .	٢٤٦٤
٨	**المبحث الثاني** : العاطفة والصورة الشعرية .	٢٤٧٤
٩	**المبحث الثالث** : الإيقاع الموسيقي .	٢٤٨٩
١٠	**الخاتمة**	٢٤٩٦
١١	**فهرس المصادر والمراجع**	٢٥٠٠
١٢	**فهرس الموضوعات**	٢٥٠٦